الفصل الثانى

العرب.. أزمة أمة

ماذا فعلنا بحضارتنا ؟!

أسجل في البداية الرفض والاستنكار لتلك الحملة التي بدأت في بعض المحطات الغربية ضد الحضارة العربية والإسلامية، وذلك من موقعي كمنتم لهذه الحضارة. ولكن هذا الرفض والاستنكار لم يمنعني أن أطرح هذا التساؤل الذي قد يكون صادماً لنا في هذه المرحلة، والذي قد لا يتفق مع أسلوب طرحه، أو حتى مجرد طرحه : ماذا فعلنا بحضارتنا وماذا فعلت بنا؟

الأمر المتيقن أن العالم بعد ١١ سبتمبر ٢٠٠١ لم يعد هو العالم نفسه الذي عرفناه من قبل، والمرحلة التي نعيشها الآن هي مرحلة إعادة رسم لملامح هذا العالم ، وهو الأمر الذي يحدو بنا لكي نتوقف نحن أيضاً ونطرح الأسئلة الصعبة حتى نتمكن من تجاوز هذه المرحلة.

في البداية أفضل استخدام تعبير «الحضارة العربية الاسلامية»، الذي يعد في نظري مفهوماً أكثر تكاملاً وتفاعلاً من تعبير «الحضارة الاسلامية»، ذلك أن هذه الحضارة – أي الإسلامية – هي العمود الفقري الذي ينشئ مكونات أخرى مكملة ومدعمة للحضارة العربية الإسلامية.

وأعود لأتساءل: ماذا فعلنا بحضارتنا؟ إن مقومات وأسس هذه الحضارة كفيلة بخلق أمة رائدة ومؤثرة في العالم، ولكن النتيجة التي وصلنا إليها الآن ان المليار انسان المنتمين إلى هذه الحضارة هم من أكثر سكان الأرض شقاء وتخلفاً. ان العيب ليس في انتماء هذا المليار لهذه الحضارة، ولكن العيب هو

في أولئك الذين ضيعوا الموروث والأسس والمقومات التي تكفل لهذه الحضارة أن تسود.

حضارتنا اعترفت بالآخر وحضت على التعامل معه، لكننا نحن ــ أو من ولوا علينا لمئات السنين ــ رحنا نرفض الآخر، داخل مجتمع هو خارجه، وأصبحنا أحاديي النظرة والرؤية.

حضارتنا حثت على الاجتهاد والاختلاف، ولكن واقعنا بات عدواً للاختلاف، نابذاً له، واستخدمنا تعبيراً ليس غريباً عما استخدمه بوش «من ليس معنا فهو ضدنا»، هذا النفي للآخر، وإنكار الحق في الاختلاف، مارسناه جميعاً داخل بيوتنا ومع أفراد أسرنا الصغيرة، حتى على مستوى الدول والمجتمعات الاسلامية والعربية، مروراً بكافة مستويات التجمعات والعلاقات الانسانية، وبات الآخر «خارجاً» و«مارقاً» و«خائناً» في بعض الأحيان.

حثت حضارتنا على الشورى، ولكن ماحدث وتعيش اننا زيفنا الشورى وتجاوزنا الديمقراطية وغاب الناس ــ أو غيبوا ــ عن التأثير الحقيقي في اختيار أساليب حياتهم.. دين وحضارة يحثان على الحفاظ على حقوق الانسان وتكريمه أياً كان جنسه أو لونه أو عقيدته، ولكن مافعلناه أننا ضيعنا هذه الحقوق أو ضيعت منا، ووقفنا ندافع، أو بعض منا، من منطلق أن هذا الضياع أو التضييع ليس حقيقياً، بل هو عدم الفهم من الآخر لحضارتنا، والحقيقة عكس ذلك.

حضارة تحث على البحث والعلم والاجتهاد، وانتهى بنا الحال أن أصبحنا مستهلكين للتكنولوجيا، وفي بعض الأحيان بعد جهد للاقتناع بفائدة هذه التكنولوجيا.

المطلوب الآن استغلال هذه اللحظة لتكون لحظة مواجهة وتساؤل، ماذا فعلنا بحضارتنا التي بسببنا نحن أصبحنا في موقعنا وموقفنا الذي نراه؟

لا أعتقد أن مهاجمة الحضارات الأخرى واتهامها بأنها تنظر لنا بقدر من الفوقية ومن عدم الفهم هو أمر كاف. قد يكون هذا صحيحاً ولكن ما أعتقده أننا ينبغي أن نبدأ نقداً ذاتياً من منطلق الحرص على وجودنا كقيمة في هذا العالم .

إن الاكتفاء باجترار الماضي هو شكل من أشكال التغييب. وللعملة وجهان، أحدهما يتمثل في التأكيد على مقومات وأسس وتاريخ حضارتنا، والثاني همه تفعيل هذه الحضارة، وإلا باتت كبطة عرجاء وسط عالم يعيد تشكيل نفسه ولم يعد يكتفي بالركض وإنما تجاوز ذلك بكثير.

وأذكّر هنا بما طرحه الدكتور زكي نجيب محمود من أن العقل هو طريق من عدة طرق، انه طريق يتميز بتسلسل خطواته المؤدية إلى الهدف المقصود، إذ تتميز الوقفة العقلية بأنها مقيدة بالروابط السببية، أما الوقفة العاطفية فتختار ماهو محبب إلى النفس. إن ما نحتاجه الآن هو وقفة العقل التي نستحضر فيها كل ما أضعناه أو فقدناه من مقومات وأسس لهذه الحضارة، وفي مقدمتها حق الحوار، والاختلاف، والمشاركة في صنع القرار، والحفاظ على حقوق الإنسان، دون أن يخيفنا هاجس أن هذه الممارسة سوف تعود علينا بخوف أو حزن .

على هامش ماجرى :

البحث عن الغول والعنقاء
واتفاقية الدفاع العربى المشترك

كلما تأزم الموقف بحث الناس عما يعينهم على الخروج من الأزمة، استحضروا أبطالا من التاريخ حالمين بعودتهم، أو باحثين عن أمل أي أمل في واقعهم يتصورون أنه المخرج . ينطبق هذا على الوضع الذي نعيشه الآن، تلك الحالة التي انفردت فيها إسرائيل بالفلسطينيين ، مارست معهم كل أنواع الجرائم، وقتها شعر الناس في الشارع بالعجز والغضب، في مثل هذه الأجواء تضاربت المشاعر، فمن باحث عن صلاح الدين، ومن ساخط على الواقع مستحضراً صفحات من تاريخ العرب، بينما آخرون يتنادون بأهمية التضامن العربي مطالبين بإحياء المهجور من الاتفاقيات العربية وعلى رأسها اتفاقية الدفاع العربي المشترك.

اعتقد المنادون بإحياء هذه الاتفاقية أنها الطريق الوحيد للخروج من المأزق وكأنها الوصفة السحرية التي لو طبقت لخرج العرب من المأزق منتصرين.

لعله من المناسب بعد أن هدأت الأمور قليلاً ، وبدأ غبار الانفعال في الانقشاع أن نتوقف ليس للحظة ولكن لفترات طويلة لنتناقش وندرس كل

ماحدث خلال السنوات الماضية، وكل الدعوات والاتهامات والأحلام والخرافات والحقائق التي أفرزتها تلك الحالة المتمثلة في المواجهة بين التجاوز الإسرائيلي في مواجهة العجز العربي.

البدء في مناقشة كل إفرازات هذه المرحلة التي لم تنته بعد هي من الهموم ــ أو هكذا أتصور – التي ينبغي أن تشغل عقول الأمة ومفكريها. التوقف لدراسة ما حدث وآثاره، وأياً كانت قسوة النتائج فإن مواجهتها هي الخطوة الأولى التي لا يمكن أن يبدأ أي تطور إيجابي إلا بها.

مواجهة الواقع تستلزم منا قراءة واقعية للخرافات والحقائق والأوهام والوقائع التي نعيشها.

من بين هذه الخرافات التي ظهرت على سطح الأزمة الدائمة كانت اتفاقية الدفاع العربي المشترك ، وهي الاتفاقية التي تنادى بها المتظاهرون في العواصم العربية، والمتصارخون عبر القنوات الفضائية، وخرج من يتهم الأنظمة العربية بتقاعسها عن تطبيق وأحياء هذه الاتفاقية، ووصل الأمر إلى مستوى مسؤولين رفيعي المستوى على الصعيد العربي يتحدثون عن احياء هذه الاتفاقية. والحقيقة أن اتهامات عدة يمكن أن توجه إلى الأنظمة العربية في الأزمة الأخيرة، ولكن ليس من بينها بالتأكيد التقاعس عن تطبيق اتفاقية الدفاع العربي المشترك، التي هي في الواقع لا تمثل أكثر من وثيقة كادت تكتسب صفة الأثر، ولم تمثل في أية مرحلة أكثر من تكئة لفعل ما، أو مزايدة كلامية في مواقف لا تحتمل المزايدات . وآخر هذه المزايدات الاتهامات التي وجهت لأنظمة دول عربية على رأسها مصر لتقاعسها عن إعمال اتفاقية

الدفاع المشترك، والدخول في حرب ضد إسرائيل لإنقاذ الفلسطينيين، وتجاوزاً لمناقشة مسألة الحرب مع إسرائيل وإمكانيتها وهو الأمر الذي خاض فيه العديد، أود أن أتوقف أمام مسألة اتفاقية الدفاع العربي المشترك.

لا أظن أن الكثيرين توقف قليلاً أو كثيراً في محاولة لقراءة نصوص هذه الاتفاقية، ولا أعتقد أيضاً أن كثيرين يعرفون أن اسم هذه الاتفاقية هو «معاهدة الدفاع العربي المشترك، والتعاون الاقتصادي».

جاء ميثاق جامعة الدول العربية خالياً من أية نصوص حول التدابير المسموح باتخاذها لحماية الأمن القومي للدول العربية، ولم تحدد أجهزة أو آلية أو مهام في حال تعرض النظام العربي أو إحدى دوله لأية مخاطر عسكرية. وهو الأمر الذي يختلف بالتأكيد عن الوضع فيما يتعلق بميثاق الأمم المتحدة الذي جاء تالياً في الصدور لميثاق الجامعة العربية. هذا النقص المبدئي في الميثاق ظهر رغم الشواهد العديدة في ذلك الوقت حول تعاظم الخطر الصهيوني الذي كان في تلك الفترة بادياً أنه يتكون ليشكل الخطر الأساسي على النظام العربي بأسره.

ووقعت نكبة ٤٨، ومني العرب بالهزيمة الكبيرة الأولى في مسلسل الصراع العربي الاسرائيلي، وكان أهم دروس هذه النكبة أدراك القيادات السياسية العربية لمدى أهمية التعاون والتنسيق العسكري بين الدول العربية تجاه الخطر المشترك المتمثل في إسرائيل. وكان نتاج هذا الادراك معاهدة الدفاع المشترك والتعاون الاقتصادي بين الدول العربية. وهكذا ولدت الاتفاقية مثار الجدل في يونيو ١٩٥٠ من رحم نكبة ١٩٤٨ . ولكنها في ما يبدو كانت صحوة أشبه

بنبضة من بين نبضات متقطعة شهدها تاريخنا المعاصر يفصل في ما بينها فترات طويلة من الجمود.

تضمنت المعاهدة بعض النقاط المهمة التي كانت تصلح لأن تكون أساساً للبناء الذي لم يتم أبداً، تضمنت المعاهدة إقرار مبدأ فض المنازعات بالطرق السلمية، واعتبار أي اعتداء مسلح يقع على أي دولة عربية اعتداء على كل الدول المتعاقدة وعليها أن تبادر إعمالاً لحق الدفاع الشرعي أي تقديم العون للدولة المعتدى عليها، وأشارت الاتفاقية إلى أهمية التعاون العسكري بين الدول العربية من أجل تعزيز مقوماتها العسكرية، الشق الإيجابي الآخر من الاتفاقية يتناول ترتيبات اقتصادية للنهوض باقتصاديات البلدان العربية.

وكأنما ولدت الاتفاقية لتحمل في طياتها أسباب تعطيلها، فمن السلبيات المهمة في الاتفاقية عدم إلزام الدول الأعضاء باستخدام قواتها المسلحة للدفاع عن أي بلد عربي آخر يتعرض للعدوان من الخارج ، ترك حرية ونوعية التصرف في تقديم العون للدولة المعتدى عليها لكل دولة دون تحديد واضح لأسلوب التدخل، ولم تتعرض الاتفاقية لموضوع التكامل العسكري بين الدول العربية وضرورته، بل وحيويته كأساس للأمن الجماعي العربي، وغاب التأكيد على وجود تخطيط محدد للقوات المسلحة العربية.

احتوت الاتفاقية على تشكيل مجموعة أشكال تنظيمية للعمل العربي العسكري المشترك مجلس دفاع مشترك له سلطة قرار ملزمة يضم وزراء الخارجية والدفاع، هيئة استشارية عسكرية تضم رؤساء أركان الجيوش العربية

للدول المتعاقدة ولجنة عسكرية دائمة، وقيادة عسكرية موحدة ترأسها الدولة التي تشارك في مسرح العمليات بقوات وعتاد أكثر.

من القراءة الأولية لنصوص معاهدة الدفاع العربي المشترك ومقارنتها سواء باتفاقية حلف الأطلنطي أو حلف وارسو من قبل لاكتشفنا أن الروح واحدة، أي أن هذه المعاهدة كان يمكن أن تكون صالحة للبناء عليها، والوصول في مرحلة تالية ، إلى حلف، ولكن هذا الحديث النظري يتضاءل بل ويتلاشى أمام الواقع العملي. الفارق الرئيسي بين حالة معاهدة الدفاع العربي والأحلاف الجادة الأخرى أن أصحاب هذه الأحلاف عنوا ماقالوا ونفذوا ماتعاقدوا عليه، وطوروا مفاهيم التعاون العسكري والدفاع المشترك بينما ظلت المعاهدة العربية نصاً بلا روح وأجهزة بلا محتوى، فقد ترافق مع هذه المعاهدة كما غيرها من المعاهدات والالتزامات حالة غياب كاملة للإرادة السياسية العربية في تفعيل أي من هذه الأشكال الوحدوية أو التعاونية أو التضامنية، أو أي مسمى آخر يمكن أن يقبل به أي تيار أو فصيل سياسي عربي. فمن الواضح أن المنظومة العربية تعاني ليس فقط من ضعف في بنيتها وجوانبها التنظيمية، وإنما كذلك من عدم قدرة الدول العربية منفردة أو عدم رغبتها في أن تعمل في دأب لتنفيذ برامج تستهدف الصالح المشترك، بل وتغلب المصلحة القطرية الضيقة على المصلحة القومية العامة.

تناغم مع غياب الإرادة السياسية حالة الشك العربي ــ العربي المتبادل بين الدول العربية، ولعل تجربة «القيادة العربية الموحدة» التي أقرت في القمة العربية في سبتمبر ١٩٦٤ في اطار ميثاق التضامن العربي.. لعل هذه التجربة،

أو أسباب فشلها هى خير دليل على إبراز هذه الميزة الواضحة في العلاقات العربية ــ العربية وهي الشك وعدم الثقة.

فقد تشكلت تلك القيادة لمواجهة الخطر الإسرائيلي – مرة أخرى – ومن اختصاصاتها تنظيم عمليات مشتركة، ولكنها لم تكن مسؤولة عن التنظيم الشامل للدفاع عن الدول العربية، أو عن نظم التسليح للجيوش العربية، وتركت هذه المسؤوليات الحيوية للقيادات القطرية، وهذا الأمر وحده كان كفيلاً بولادة «قيادة عربية موحدة» عاجزة ومعوقة، فعلياً ليس لها اختصاصات لتمارسها، والأنكى من ذلك امتناع الدول العربية عن سداد حصتها المالية ــ كما هي العادة ــ للقيادة الموحدة، ورفضت الحكومات العربية الموافقة على مبدأ انتقال القوات العربية من دولة إلى أخرى أو دخول أراضيها أو حتى عبورها.

حتى البدائل الثنائية والثلاثية في تشكيل قيادات عسكرية موحدة أو تنسيق على مستوى عال بين دولتين أو أكثر مني دائماً بالفشل، وولد مقروناً بأزمات الشك والتربص، وغياب الإرادة الحقيقية .

التوقف أمام العديد من المواقف التي واجهت الدول العربية منفردة أو جماعة منذ عام ١٩٥٠ – عام توقيع الاتفاقية – وحتى الآن تبين لنا أن هذه الاتفاقية المزعومة ما هي إلا قطعة من الورق لم تستخدم إلا لتبرير تدخل أو تمرير قوات أو تدمير أخرى، وهي ذات الاتفاقية أيضاً التي تآمر الجميع على نسيانها في أوقات الضرورة ــ والضرورة هنا هي البناء عليها وخلق آلية لها ــ وذلك لوجود تناقضات أساسية في اهتمامات وأولويات الدول العربية

منفصلة. لو تذكرنا فقط ما مر بالعالم العربي خلال تلك الفترة واستحضار ما جرى فإن هذا سوف يؤكد ـــ من وجهة نظري على الأقل- النظرة الواقعية والتي قد تبدو قاتمة حول حقيقة هذه الاتفاقية. هذه الأحداث التي بدأت منذ الاعتداءات الإسرائيلية في مطلع الخمسينات وحتى ضرب الفلسطينيين المستمر حتى الآن ، مروراً بحروب ٥٦ ، ٦٧ ، ٧٣ وأزمة حنيش، والجزر الثلاث، وغزو الكويت وحرب تحريرها والحرب العراقية الإيرانية وحروب الانفصال والتوحد، وكل المناوشات الحدودية خلال أكثر من نصف قرن بين مختلف الدول العربية.

الواقع يقول إنه لا توجد من اتفاقية الدفاع المشترك سوى نصوص أفقدتها السياسات العربية على مدى أكثر من نصف قرن مضامينها، حتى الاتفاقات الثنائية والثلاثية خارج إطار الجامعة أصيبت بذات الداء، الواقع يقول إنه لا توجد شفافية عربية ـــ عربية في المسائل العسكرية، وفي ما عدا المعلومات المخابراتية التي تنشط الدول العربية في جمعها عن بقية الدول الأخرى فلا يوجد شكل من أشكال تبادل المعلومات عن القدرات العسكرية للدول الأخرى، وهذا يقودنا إلى حالة الشك المتبادل.

الواقع يقول إنه لا يوجد تكامل عسكري عربي، ولا محاولة جادة من أجل نهضة حقيقية في مجال التصنيع العربي المشترك، ارجعوا إلى تجربة الهيئة العربية للتصنيع التي ولدت بحلم وأغتيلت بخنجر الخلافات السياسية.

العرض المختصر السابق للواقع يبين أن الدعاوى التي خرج بها المنادون بإحياء اتفاقيات الدفاع المشترك لا تستند إلى أساس واقعي، وهي دعوات

لأشخاص منفعلين أو غير مدركين لحقيقة الأمـــر. إن البـــاحثين عـــن تفعيـــل اتفاقية الدفاع المشترك إنما هم كالباحثين عن المستحيلات، الغـــول والعنقـــاء والخل الوفي ويستمر البحث عن الغول والعنقـــاء واتفاقيـــة الـــدفاع العـــربي المشترك.

ملحوظة أخيرة ليست بريئة إطلاقاً، ففي الوقت الذي يحرص مجلـــس وزراء الداخلية العرب على الانعقاد بشكل دوري سنوي، وتحرص كافـــة القيـــادات الأمنية العربية على حضوره للتنسيق بين إدارات الأمن الـــداخلي المختلفـــة في الدول العربية جميعها، فإن مجلس الدفاع العربي المكـــون مـــن وزراء الـــدفاع العرب ووزراء الخارجية معهم لم يجتمع أو يدع لاجتماع منذ سنوات لا أظـــن أن أياً منا يذكرها .

* * * *

ممتطو الأحصنة الخشبية وثقافة (التوكيل)

قد يبدو الصوت الذي سوف اطرحه غريبا في ظل أمواج الأصوات الهادرة هذه الأيام، لائمة، صارخة، متألمة، غاضبة، والحق كل الحق لهذه المشاعر التي تسيطر على الشارع العربي كله بسبب الجرائم التي يواجهها وحيدا شعبنا العربي في فلسطين.

لكن التوقف للحظة لمواجهة الحقيقة العارية هو أكثر ما نحتاجه الآن. هذه الحقيقة التي قد تكون مؤلمة أو هي بالفعل مؤلمة، لكنها الواقع، أو الحقيقة المرة التي نعيشها، وبناء على معرفة هذا الواقع يمكننا أن نرسم صورة المستقبل.

أشبه بمن التف حول جسد عليل يصرخ أو يشجع أو يولول أو يغذي.. هذا هو حالنا، ولا يتمكن أو لا يريد العارفون بحقيقة مرض هذا الجسد أو هذه الأمة من التصريح بحقيقة المرض العضال الذي يعانيه البعض.. لا يتمكن لأنه سوف يبدو صوتا نشازا في اطار الصراخ الذي سيطر على الموقف نتيجة الالم، والآخر لا يريد لأنه قرر أن يركب حصانا خشبيا يحارب في معركة يعلن أنه لن يخسرها. يحمل سيفا خشبيا ويخرج منها ــ بطلا ــ قوميا أو إقليميا أو حتى محليا، وهذه هي العادة العربية القومية منذ عشرات السنين.

الجسد العليل والمزايدة عليه لن تفعل شيئا إلا القضاء عليه. لن يستطيع هذا الجسد أن يحارب، أو يقاطع مقاطعة حقيقية ومؤثرة، أو يتمكن من تنفيذ ما يطلبه منه الملتفون حول سريره، (أقصد المتظاهرين في شوارعه).. «واحد أتنين الجيش العربي فين» لم يكن هذا مجرد هتاف في الشوارع العربية، ولكنه كان أيضا الشعار الصريح أو الخفي لدى العديد ممن يفهمون الحالة الحقيقية للجسد المريض. وإذا كان الشارع تحكمه العاطفة فإن الفاهم والمدرك تحكمه حسابات اخرى، أما إذا كانت العاطفة هي الحاكمة له أيضا فنحن هنا أمام مشكلة حقيقية، فلا الوقت وقت تحكيم العاطفة وحدها، ولا الوقت وقت امتطاء الاحصنة الخشبية وامتشاق السيوف الخشبية والاعلان عن معركة لن تزيد الجسد المثخن الا جروحا جديدة. الوقت الآن هو فقط وقت مواجهة الحقيقة التي درج المؤلفون على وصفها بالعارية، ليس لأسباب تتعلق بفتنة أو إثارة، ولكن وصفوها بذلك لينكشف مدى الصدمة واحيانا الالم عند مواجهة هذه الحقيقة.

أولى خطوات هذه المواجهة هي الاجابة عن السؤال المهم: ما الذي تهدف إليه إسرائيل من جرائمها؟ هل حقا تريد التخلص من عرفات الشخص؟ أم تريد التخلص من عرفات بالمواصفات الحالية والحصول على قيادة بمواصفات جديدة سواء كانت هذه القيادة عرفات أم شخصا آخر.. أم تريد تدمير البنية التحتية للتنظيمات الفلسطينية المسلحة، ونزع السلاح المتواضع من أيدي قوات الأمن الفلسطينية؟ وهل ما تقوم به إسرائيل هو المرحلة الثانية من الحرب ضد الارهاب؟ وهل معنى هذا ان الجنوب اللبناني هو الهدف القادم؟ وما معنى الإشارة إلى إيران وسورية، ناهيك عن العراق؟ وماذا يستطيع العرب فعلا أن يفعلوا إزاء ذلك؟ هل تملك البلاد العربية ــ أي بلد

ـ القدرة الآن على الدخول في مواجهة مباشرة مع إسرائيل؟ هل يسمح شكل العلاقة ومستواها (!!) لأي دولة عربية أن تقف في مواجهة الولايات المتحدة الامريكية، وإلى أي مدى؟! ما هي حقيقة الامكانات العربية الحقيقية القابلة للاستخدام لمواجهة ما يحدث؟ وكيف يمكن أن نجني ثمار هذا الغليان الشعبي الهادر ايجابيا لدعم الأشقاء في فلسطين؟

لعل السؤال الاخير يطرح جملة إعتراضية جديدة إضافة إلى كل التساؤلات السابقة، وهي ترتبط بثقافة «التوكيل» التي سادت العلاقة بين الشعوب العربية وإداراتها أو حكوماتها طيلة عشرات السنين، فقد وَقّعَتْ الشعوب العربية، بعلمها او بدون علمها، على توكيل قياداتها، تتصرف نيابة عنها وتقرر لها، وتحارب بها دون سؤالها وتوقع أو تبادر دون علمها. وبناء على هذا التوكيل «الرسمي» ألتزمت دول وبادرت أخرى وعاهدت ثالثة، دون ان يدري كل هؤلاء، أن ذلك تم بالتوكيل الذي حصلت عليه القيادات، ونسيت الشعوب أنها أعطت هذا «التوكيل» أو لم تعلم أصلا بوجوده، ولكنه فعل فعله، وباتت الالتزامات والمبادرات والمعاهدات دولية وملزمة.

أظن أن الدور الجديد المطلوب من الصامتين، وراكبي الأحصنة الخشبية اضافة إلى الإجابة عن الأسئلة التي سقنا بعضها، عليهم أن يكشفوا حقيقة «التوكيلات» ويفحصوا مدى قانونيتها وشعبيتها.

* * * *

من يجرؤ على الكلام ؟!

إحدى مشكلاتنا الأساسية في ثقافتنا الاجتماعية السياسية العربية هي عدم قبول الاختلاف الذي وصل في أحيان كثيرة إلى حد التكفير والتخوين على مدى قرون من تاريخنا، حيث مررنا بموجات من التكفير والتخوين في مراحلنا التاريخية، وما أكثر ما يمر عالمنا العربي بمثل تلك المراحل.

إن طرح وجهة نظر مخالفة في قضية ما للتيار العام السائد حول تلك القضية سوف يؤدي بالضرورة إلى اتهام صاحب ذلك الطرح باتهامات تبدأ من عدم الفهم وتصل إلى حد التخوين. ذلك أن نفي الآخر ــ وأقصد بالآخر هنا من داخلنا ــ وتخوينه ونبذه أصبحت كلها ملمحاً رئيسياً لثقافتنا الحوارية. فنحن ــ غالباً ــ لا نقبل التوقف للحظة لنكتشف أبعادا إيجابية للطرح المخالف لرأينا، والذي ربما يحمل أبعاداً قد تكون جديدة أو مكملة للصورة، وإنما نصر على أن نتسمر في زاوية محددة من هذه الصورة، زاوية حددناها نحن أو حددها موروثنا الثقافي أو الديني أو السياسي، نتسمر في تلك الزاوية نحدق في الصورة أو الموقف، رافضين أن نسمح لأي منا أن يكون له الحق في أن يختلف أو يجرؤ على أن يتخذ لنفسه زاوية أخرى ينظر إلى الصورة من خلالها.

هذه الحالة السابق وصفها أدت وتؤدي إلى دفع من يملك وجهة نظر مخالفة لأن يلتزم الصمت، أو يقنع بطرحها في حدود متواضعة، وفي بعض الحالات لا يتمكن البعض إلا من ممارسة النفاق الشعبي، فيخرج على الجماهير بآراء تتفق مع التوجه العام حتى لو كانت مغايرة لموقفه الحقيقي.

وحتى نضع ما طرحناه على محك الواقع نتساءل: من يجرؤ اليوم على أن يناقش حدود مسؤولية النظام العراقي السابق عن الوضع الراهن الذي وضع فيه العرب جميعاً؟ من يجرؤ على أن يتساءل عن غياب استراتيجية تحكم الانتفاضة الفلسطينية، أو يناقش حدود مسؤولية عرفات شخصياً عن الوضع الذي يعيشه شعبه، أو يجادل في الطرح الذي تتبناه حماس والجهاد الاسلامي في العمل النضالي؟. من يجرؤ على مخالفة الطرح القائل بعداء الغرب المطلق للاسلام ؟ من يجرؤ على مناقشة مفاهيم علاقة الدين بالمجتمع، المقاطعة، تداول السلطة وحدود دور رجال الدين؟ من يجرؤ اليوم على اتخاذ موقف ضد السائد من مواقف الجموع؟ الدعوة هنا ليست لمجرد الاختلاف، ولكنها دعوة للقبول بالاختلاف طالما هو واقعي وموضوعي.

ان قبول الآخر منا والتريث في الأحكام هو المطلوب كمبدأ يحكم حياتنا وعلاقاتنا. لقد نظر البعض منا طويلاً إلى عزمي بشارة باعتباره «جاسوساً» اسرائيلياً بدرجة نائب في الكنيست. واكتشفنا فيه في ما بعد مناضلاً قوياً لكنه نموذج مختلف. وهوجم مروان البرغوثي من قبل باعتباره داعياً للتطبيع ومحسوباً على مجموعة كوبنهاجن، وتحول إلى بطل بعد اعتقاله.

لا يندرج مافات تحت عنوان «جلد الذات»، لكنه يأتي بدافع مصارحة الذات، والدعوة إلى إعادة النظر ومناقشة الكثير مما نعتقده ثوابت وهو ليس كذلك.

* * * *

(١)

العرب بين خيار التمزق والحفاظ على الهوية

ظل حلم المثلث الذهبي (مصر ــ ليبيا ــ السودان) حلماً يراودنا منذ بدأنا نفهم أبجديات السياسة، ذلك المثلث الذي لو تحول إلى واقع ــ كما كنا نأمن ــ لأصبح قوة إقليمية ــ بل عالمية ــ اقتصادياً وسياسياً، ولكن لم يكن يُسمح أبداً لذلك المثلث أن تتكامل أضلاعه، وإنما كان هناك دائماً ضلع من الأضلاع الثلاثة على خلاف مع طرف أو الطرفين الآخرين، أو كان الثلاثة في خلاف.

اليوم تغير الحال في العالم، ولعل التغيرات التي بدأت مع مقدمات انهيار الاتحاد السوفيتي السابق، ثم انهياره وتفتت أوصاله، وما تبع ذلك من تكون دول أو أشباه دول قائمة على أسس عرقية، كان ذلك بداية التحول الكبير. توازى مع هذا التحول أو قبله بقليل بداية التكتلات الجغرافية، وفي الفترة التالية، ومع ما تشهده العديد من مناطق العالم من صراعات على أسس عرقية ودينية بدأت تستقر فكرة العلاقات على أسس مصلحية.

هذه العلاقات المصلحية تعتمد بالدرجة الأساسية على إمكانية التكامل المصلحي، ومعظم هذه العمليات التكاملية تلعب الجغرافيا دوراً أساسياً فيها

وأصبحت دول الجوار هي الامتداد الطبيعي والتربة الخصبة لهذا الارتباط المصلحي. ونظرة حولنا يمكن أن تؤكد هذه الحقيقة فهذه أوروبا تقترب من أن تكون موحدة، والولايات المتحدة الأميركية تتكامل ــ بالمفهوم الاقتصادي ــ مع دول أميركا اللاتينية، وتحاول الهند في آسيا أن تخلق لنفسها فضاءها. وفي أفريقيا بدأت محاولات تبدو جادة في محاولة التوصل إلى كيان قادر على الحضور في مواجهة الواقع الجديد.

في ظل هذا الوضع القائم يظل بالحاح التساؤل المهم، أين العرب من كل هذا؟ بل وهل حلم المثلث الذهبي حتى لو أصبح حقيقة يمكن أن يكون هو الجواب الشافي في ظل معطيات الواقع؟ أظن الإجابة بالنفي، مثل هذا الكيان كان يمكن أن يكون قوياً وقادراً على مواجهة الدول الأخرى منفصلة، ولكن وهي تدور في فضاءات أرحب وكيانات أكبر وأكثر تكاملاً فإن هذا النموذج يكون قد تجاوزه الزمن، وإن صلح فلا يصلح كحل نهائي ولكن كخطوة في طريق هذا الحل.

عرب اليوم مقسمون أو مرشحون للتقسيم ــ أو التشتت بين الكيانات القائمة اليوم، جزء وجد امتداده في أفريقيا ورأى أن ذلك امتداد طبيعي حيث هم أفارقة منذ ألف عام، وجزء آخر وجد في برشلونة مستقبله ، وجزء ثالث في آسيا لن يجد أمامه سوى محاولة التنسيق والتكامل، ولكن ظروف الجغرافيا سوف تدفعه إلى الفضاء الآسيوي في ما بعد. أي أن التشرذم هو الخيار المطروح.

المشكلة مع برشلونة تكمن في نظرة أوروبا الموحدة إلى جيران الجنوب، والرغبة في الوصول إلى تحويل البحر الأبيض المتوسط إلى بحيرة أوروبية هادئة، وتؤمن أوروبا الموحدة حدودها الجنوبية ــ الدول العربية على المتوسط ــ وهذا الوضع يمكن أن يعني في النهاية تحول هذه الدول إلى ما يمكن اعتباره حديقة خلفية لأوروبا، وتكون العلاقة بين الجنوب العربي والشمال الأوروبي علاقة تبعية يكون العرب فيها أقلية ضائعة تسمح للآخر بالتدخل في أدق شؤونه، ويتحلل العرب كهوية وتبرز محلها ثقافة الأقليات والديانات والأعراق بديلاً عن هوية عربية واحدة.

ضياع الهوية هو أيضاً الخطورة الحقيقية التي تواجه العرب الذين قد لا يجدون خياراً غير الذوبان في الفضاء الهندي أو الآسيوي بشكل عام.

تبقى أفريقيا التي تعاني هي الأخرى من مشكلات سياسية واقتصادية في الوقت الراهن، ولكنها تمتلك مجموعة من العناصر الإيجابية على الطرف الآخر، من أهمها المياه والمواد الخام التي هي كلمة السر إلى المستقبل فما زالت هذه القارة قابلة لأن يطلق عليها بكر، تمتلك غير المواد الخام المعروفة ما يزيد عن ٢٢ ألف كيلومتر من الأنهار، وبحيرات في ضخامة فيكتوريا وتشاد والبحيرات العظمى، هذه العناصر وغيرها تجعلها مطمعاً لتكالب عالمي عليها، من الغرب واليابان وأميركا وأيضاً إسرائيل .

وإذا ما وضعنا عناصر التاريخ والجغرافيا والتواصل المكاني فإن أكثر الكيانات التي يمكن للعرب أن يتعاملوا معها ككتلة واحدة ومؤثرة بل وقائدة هي الكيان الأفريقي حيث سيكون لهم ثقل حضاري واقتصادي، حيث يملك

العرب في هذا إمكانات تؤهلهم لأن يكونوا مهيمنين لا تابعين . قد يقول قائل ان أفريقيا هي أضعف الكيانات المطروحة على الساحة اليوم، وتعج بالمشاكل التي تعصف بالعديد من الدول فيها. والرد على ذلك يتلخص في كلمة تعبر عن أحد جذور هذه المشكلات وهي الفراغ، فأفريقيا تعاني من فراغ اقتصادي ، العرب قادرون على ملئه وفراغ سياسي نازع عن واقع قبلي حله يكمن في الارتباط المصلحي بين دول القارة ودول الكيان العربي. وما قد يعطي إحساساً بالأمل في المستقبل أن قطاعاً كبيراً من الأفارقة بدأ الإحساس بأهمية التكامل، وبدأ الأفارقة يتعاملون بجدية ملموسة مقارنة بالماضي ويبحثون عن صيغة للعلاقة الجديدة للكيان الأفريقي في قمة سرت ثم قمة لومي ، ولعل قدرتهم على عقد أكثر من قمة في العام الواحد هو دليل مهم على هذه الجدية.

الأكيد أن العرب يمرون هذه الأيام بمرحلة مفصلية في تاريخهم، والطريق للوصول إلى الخيار الصحيح هو دراسة هذه الخيارات المطروحة بعلمية وجدية وروح المسؤولية عن أجيال قادمة.

* * * *

(٢)

مصر والسودان

في عام ١٩٨٥ كانت أول زيارة لي إلى السودان. كانت الانتفاضة في أسبوعها الثالث تقريباً، وكان كل سوداني يسير مزهواً وكأنه يريد أن يؤكد أنه كان جزءاً من تلك الانتفاضة التي تظل جزءاً مضيئاً في تاريخ السودان مهما كانت السلبيات المصاحبة أو التالية لها. في تلك الزيارة وضعت يدي للمرة الأولى على سلبيات وحساسيات العلاقة المصرية ــ السودانية، وأذكر وقتها لقاء جمعني والدكتور محمد بشير حامد، الأستاذ في الجامعة الأميركية ووزير الإعلام السوداني في تلك الفترة، ورغم التفتح الواضح في طروحات وأفكار الدكتور بشير حامد إلا أننا عندما وصلنا في نقاشنا إلى العلاقات المصرية ــ السودانية، احتد الوزير وقال ما خلاصته «إننا في السودان نعرف لاعبي كرة القدم المصريين بالاسم وفرقهم، نعرف مطربيكم وفنانيكم، فما بالك بالسياسيين والمفكرين، بينما أنتم في مصر تخطئون حتى في أسماء الوزراء والسياسيين والفنانين السودانيين في وسائل إعلامكم».

أصاب وزير الإعلام السوداني الأسبق الذي لم يبق في منصبه سوى حوالي العام، ولا أعرف أين هو الآن، فقد وضع يده على نقطة مهمة من سلبيات العلاقة المصرية ــ السودانية.

المرة الثانية التي زرت فيها السودان كانت بعد ٢٤ ساعة من انقلاب ١٩٨٩. وجوه السودانيين في تلك الفترة كانت تعبيراتها مختلفة. كان الإنهماك والارتباك وعدم اليقين في القادم هي السمة السائدة في تلك الفترة. التقيت

خلال هذه الزيارة معظم قادة الانقلاب وعلى رأسهم الفريق ــ وقتها ــ عمر البشير.

وعندما عدت إلى القاهرة والتقيت بعدها مسؤولاً مصرياً عندما علم أنني عدت لتوي من الخرطوم سألني مفاخراً دون أن ينتظر إجابة.. «هل رأيت كيف هم ــ أي قادة الانقلاب ــ مصريون «قوي»؟!».

ولم تمر سوى أسابيع قليلة ليكتشف الجميع أنهم كانوا أبعد ما يكونون عن الارتباط بمصر.

الموقفان أظهرا لي ــ مع استمرار متابعتي للشأن السوداني ــ أن مصر لم تتمكن طيلة عقود ممتدة منذ استقلال السودان من أن توجد لنفسها امتداداً حقيقياً ومؤثراً داخل الشارع السوداني السياسي وقواه السياسية المختلفة، وأن التعامل أو التعاطي مع المسألة السودانية ظل قاصراً على مؤسسات بعينها ولم يتجاوز ذلك، ولم يرق الاهتمام بالعلاقة المصرية ــ السودانية إلى مناطق أخرى مهمة تتجاوز الجانب «المؤسساتي» إلى المسائل الشعبية والحزبية والإعلامية والسياسية.

أظن أن الادراك الآن يأتي مختلفاً بعد فترات صعبة شهدتها العلاقة المصرية ــ السودانية، فقد بات الإدراك الآن بأهمية بناء هذه العلاقة على أسس جديدة، وبأن كلا البلدين عمق استراتيجي للآخر في مواجهة القادم المجهول. ولعل الزيارة الأولى التي قام بها الرئيس مبارك إلى السودان ، وهي الأولى منذ ما يقرب من ١٥ عاماً ــ هي المؤشر لذلك الإدراك الجديد.

* * * *

(٣)

حتة واحدة

«حتة واحدة» كان هذا هو عنوان الرسالة التي تلقيتها على بريدي الإلكتروني تعليقاً على مقال سابق حول مصر والسودان، وهذا التعبير هو تعبير مصري سوداني يتحدث عن العلاقة بين البلدين ويصفهما بأنهما ــ أي مصر والسودان ــ «حتة واحدة»، بل وتطور الأمر إلى أن وصل هذا التعبير في النكات التي تتناول العلاقة بين البلدين لتحمل المعنى العكسي عندما يتعرض سوداني أو مصري لموقف يسيئه فيصرخ قائلا «ليس حتة واحدة، بل مليون حتة». الرسالة وقعها سوداني مقيم في أوروبا كنيته «أبو محمد» يقول فيها «عندما رأيت جواز سفري الذي امتلأ بتأشيرات الدخول لمطارات العالم بحثت لأرى أين ختم مطار القاهرة». ويروي كيف انتظر ساعتين ليأتيه ضابط الجوازات معتذراً عن التأخير بابتسامة قائلا «معلش نحن إخوة». «أنا زول مغمور» يقول أبو محمد الذي يضيف «يعاودني الحنين لزيارة مصر، ولكن التأشيرة أصبحت أصعب على السوداني من الحصول على تأشيرة لأميركا». وأنا في المقابل أقول إن السودان بالنسبة للمصريين أصبح صعب الوصول إليه، بسبب الطرق أو بسبب الحصول على تأشيرة. أبناء وادي النيل الواحد فرقت بينهم السياسة والواقع على الأرض، ولم تعد مصر والسودان «حتة واحدة»، وليس أيضا «مليون حتة» بعد ولكن ما زالت الفرصة سانحة لإنقاذ

ذلك. زميلي الصحفي السوداني زين أسأله عن الطرق البرية بين مصر والسودان ليؤكد لي ما أعرفه من أنه ليس هناك طريق بري يربط البلدين، ليس هناك خط سكك حديدية، ليس هناك سوى عبارتين عبر نهر النيل تحمل فقراء البلدين في رحلة صعبة بين أسوان ووادي حلفا، وهي تصل أسوان مرة كل اسبوع غير كاملة العدد بعد فرض تأشيرة الدخول بين البلدين عام ١٩٩٥، وليس هناك طريق بري سوى ذلك الطريق عبر حلايب وشلاتين، وهو طريق وعر وصعب يحتاج إلى دليل من خبراء المناطق المعنية وعبره تتم عمليات تهريب السلاح والمخدرات أو خروج الهاربين، والذي ما كان ليوجد لولا المشكلات التي ثارت بين البلدين في وقت ما حول هذه المنطقة، ويبقى فقط طريق الجو مع ارتفاع كلفته وصعوبة الحصول على التأشيرة من كلا الطرفين. قد تكون هذه المعلومات مفاجأة بالنسبة للكثيرين، ولكنها واقع، فالبلدان اللذان كانا بلداً واحداً يوماً ما لا يملكان خطاً برياً أو قطاراً يربط بينهما، رغم كل المراحل التي مرا بها باسم التكامل والتعاون والوحدة والاتحاد والتنسيق وسم ما شئت من اسماء. مرة أخرى لا مجال لنجاح سياسي إذا غابت المصلحة، مصلحة الشعوب وارتباطها، وإدراك ذلك متأخراً أفضل كثيراً من عدم إدراكه أو تجاهله على الإطلاق.

* * * *

(٤)

مصـــر وليبيـا

كانت الطائرة متجهة إلى طرابلس، وكان الوقت نهاية عام ١٩٩٠، ولم يكن قد مر على غزو العراق للكويت سوى أسابيع قليلة، وتحولت القـاهرة وقتـها إلى ميدان صحفي رئيسي يضم صحفيين من كل بقاع الأرض. كانـت علـى متن تلك الطائرة مجموعة كبيرة منها مـدعوون في مـؤتمر صـحفي للعقيـد القذافي. وجاء مقعدي إلى جانب أحمد قذاف الدم، وكانـت المـرة الأولـى التي التقيته فيها، فقد قرأت اسمه عدة مرات أيام الـسادات مقرونـاً دائمـاً بمحاولات تخريبية مدعاة، وبدأت معه حواراً امتد طيلة الرحلة، واكتشفت فيـه سياسياً من الطراز الرفيع، مؤمناً بأفكاره ويصارح بها حتى لو كانـت مغـايرة للاتجاه العام، قادراً على الحوار ومتفتحاً لقبول الآراء الأخـرى ومحاججتـها. ولم أتمكن من منع نفسي وقتها، أن أسأله عن قصة الأعمـال التخريبيـة الـتي نسبت إليه في السبعينات، وكانت إجابته ضحكة عالية قائلا: «فتشني».

العلاقات المصرية ــ الليبية شهدت في مرحلة نهايـة الثمانينيـات وبدايـة التسعينيات نقلة هائلة في مستواها وعمقها، والأهم من ذلـك قـدرتها علـى تفادي المشكلات وحلها، وقدرتها أيضاً على التطور في وجه مقاومـة واضـحة من أطراف خارجية وداخلية أيضاً، تلك الفترة المزدهرة كان وجـود قـذاف الدم كمسؤول عن هذا الملف المهم، ملف العلاقات المصرية ــ الليبيـة سـببا رئيسيا فيها. وقد تمكن في تلك الفترة من أن يمتلـك شـبكة مـن العلاقـات الرسمية والشعبية فاقت التصور، واستغل هذه الشبكة الواسعة لهدف أساسـي هو دفع وتطوير هذه العلاقات، وكان ذلك لا يأتي بسـبب كـونه مسـؤولاً

رسمياً عن هذه العلاقات، لكنه كان يأتي نابعاً عن قناعة حقيقية وإيمان ــ أؤكد صدقه ــ بأهمية هذه العلاقات وحتمية تطويرها ودفعها للأمام من أجل صالح الشعبين، بل الشعب الواحد كما يعتقد.

وكان يتهم من الكثيرين بأنه مصري الهوى وهو لم ينف ذلك، وفاخر دائماً بوجود قطاع من عائلته يقطنون غرب مصر.

هذا الإيمان بأهمية هذه العلاقات هو الذي دفعه دوماً للتدخل في كل كبيرة وصغيرة تتعلق بها، ولم يكن غريباً أن يتدخل مرات عديدة، حضرت بعضها، من أجل حقوق عامل مصري بسيط تاه في ليبيا أو طالب ليبي في مأزق بالقاهرة.

في منتصف التسعينات ترك قذاف الدم ملف العلاقات الليبية ــ المصرية، وصاحبت خروجه ضجة افتعلها البعض، وعلى الرغم من ذلك، لم يتراجع اهتمامه لحظة في البحث دوماً عن أساليب لدفع هذه العلاقات وتطويرها، أو نزع فتيل أية مشكلة يمكن أن تتسبب في تفجير هذه العلاقة التي تعرضت للكثير من العواصف ومحاولات إعاقتها.

استحضرت العديد من الصور والمواقف المرتبطة بهذه العلاقات وبدور قذاف الدم فيها، عندما علمت ، أن الرئيس مبارك والعقيد القذافي اتفقا على تسمية قذاف الدم كمنسق عام للعلاقات المصرية ــ الليبية، واستبشرت خيراً بأن هذا الاختيار المصري ــ الليبي، سوف يكون عنصراً أساسياً في تطوير هذه العلاقات ودفعها للوصول إلى المستوى المفترض لها أن تصل اليه، فلم يعد هناك من مخرج سوى إيجاد صيغة مصلحية تجمع بين الشعوب المتجاورة، وأظن أن المصريين والليبيين أكثر تأهلاً لمثل هذا الارتباط، خاصة مع وجود الإرادة السياسية لدى قيادتي البلدين، وتوفر عناصر مؤمنة وفاعلة مثل قذاف الدم.

(٥)

نادي المنصاعين العرب.. الله غالب!

«الله غالب» هذه إحدى التعبيرات الليبية الدارجة ــ إن لم تكن الأشهر ــ وأظنها كذلك في بلدان المغرب العربي. ظل هذا التعبير حاضراً أمامي منذ أن أعلنت ليبيا أنها قررت وبإرادتها الحرة التخلص تماماً من كل أسلحة الدمار الشامل المحظورة دولياً، والتخلص من كل المواد والمعدات والبرامج الخاصة بإنتاج هذه الأسلحة، وقبول الخضوع لمراقبة دولية، والتزام ليبيا بالاتفاقات والمعاهدات الدولية في هذا الشأن.

الإعلان الليبي كان مفاجئاً للجميع عدا الأشخاص المشاركين في الاتفاق عليه، ولم تكن هناك مقدمات واضحة أو خطوات مسبقة تدل على الإعلان الذي تم، أي أنه أيضاً كان مفاجئاً حتى لليبيين أنفسهم في «الجماهيرية».

ردود الفعل العربية الرسمية المعلنة كانت مرحبة بالقرار الليبي، وردود الفعل الاعلامية والمعبرة في جزء منها عن ردود الفعل الرسمية غير المعلنة أبدت مزيجاً من الشماتة، الاستغراب، الاستخفاف، والمفاجأة، البعض قال: «هذا هو القذافي يفاجئنا دائماً بما هو غير متوقع». والآخر قال «لقد قدم التنازل الأكبر بلا ثمن». وعبر صوت آخر ومتكرر «لقد رأى ما حدث لصدام، وظن أن الدور جاء عليه، فبادر وتنازل قبل أن ينفذ فيه ما يخشى منه».

والحقيقة أن جزءاً مما سبق صحيح، وجزءاً آخر تعبير عن صدمة المفاجأة، فالأكيد أن ما حدث في العراق وما حدث لصدام حسين أخيرا ينبغي أن يضعه كل الحكام أمام أعينهم، ليس خشية من الأميركيين، ولكن خشية من شعوبهم. ولكن الموقف الليبي الأخير وفقاً لما أعلن من مختلف الأطراف، هو وليد تسعة أشهر من المفاوضات، أي أن البداية كانت في الفترة التي يتم فيها التمهيد لغزو العراق، وهذا يعني أن الإدراك الليبي بالمخاطر القادمة بدأ قبل سقوط العراق، وقبل سقوط صدام. وقراءة الأحداث وقتها تؤكد على أن ما حدث كان سيحدث بالتأكيد، حتى رغم صراخ الصارخين في محطات التلفزيون العربية.

الإعلان الليبي الأخير ــ رغم واقعيته المريرة ــ إلا أنه إعلان واضح عن هزيمة دون معركة، تنازل مع الحفاظ على الحد الأدنى، وهذا الحد الذي وصف بالأدنى يستطيع الليبيون فقط تحديده.

اعلان الهزيمة من قبل ليبيا ليس بلا ثمن وفقاً للنظرة الليبية ــ وهي نظرة تحمل منطقا ــ فبهذا الإعلان عن الانصياع للقانون الدولي ــ حتى لو كان ظالماً ــ هو تجنيب لليبيا من السقوط في الفخ العراقي. لسان حال الليبيين المقتنعين بما حدث يقول، ماذا يمكن لنا أن نفعل في حال ضرب قدراتنا العسكرية؟ هل يمكن لنا أن نقف أمام هجوم طائرات إسرائيلية مثلاً لو تحركت لتدك تلك المواقع ونحن نعاني من آثار حصار دام ١٥ عاماً ولا نملك بالتالي إمكانية الدفاع عما نملك؟ ماذا كان سيفعل العرب لو حدث هذا؟ هل يملكون القدرة على وقف مثل ذلك الاعتداء لو حدث؟

استمرار ليبيا في برنامج التسلح ــ الذي كان غير معلن ــ يبدو أنه بات مستحيلاً في ظل الظروف الدولية الراهنة، والشكر لأسامة بن لادن وصدام حسين ــ فقد بات الحصار والتدقيق حول تحركات المواد والعلماء المرتبطين بهذه الصناعة محل متابعة ومحاولات إجهاض مستمرة، وتم بالفعل خلال الفترة الماضية ضبط بعض الشحنات المرتبطة بهذه البرامج، وفيما يبدو أيضاً، وفي ظل النشاط الاستخباراتي المكثف وغير المسبوق خلال العامين الأخيرين، فإن استمرار سرية أي برامج تسلح باتت شبه مستحيلة، وهذه الحالة تجعل من استمرار أي برامج تسلح غير متطابقة مع القانون الدولي ــ حتى لو كان ظالماً ــ يبدو مستحيلا، واستهدافها يبدو منطقياً ومتوقعاً. إذا ما طبقنا عناصر هذه المعادلة على ليبيا فإن الوضع يكون كالتالي: دولة تملك برامج تسلح وبرامج نووية من المحتمل تسرب معلومات عنها من خلال أجهزة مخابرات، ويمكن أن تكون قد تعرضت لضغوط نتيجة للحالة الدولية الراهنة مما تسبب في العجز عن إمكانية الاستمرار في هذه البرامج، إضافة إلى عدم قدرة الدفاع عنها في حال تعرضها للهجوم. هذه الأمور مجتمعة تؤدي بالضرورة إلى اتخاذ قرار مثل القرار الذي اتخذ. حتى لو بدا الأمر محاولة لإنقاذ ما يمكن إنقاذه، أو لنقل البحث عن بداية جديدة للعلاقات مع العالم الجديد.

إعلان ليبيا للهزيمة والانصياع للقانون الدولي من طرف واحد هو إعلان عن واقع مرير، ليس معنى هذا أنني مع استمرار برامج التسلح النووي، ولكن الانصياع العربي الكامل من الجميع دون استثناء في ظل وجود استثناء واحد لإسرائيل هو ما أقصده، فالعرب جميعاً منصاعون من قبل، وليبيا هي المنصاع الأخير، فمرحباً بهم في النادي. الواقع المرير الذي نعيشه تفاصيله كثيرة، وملامحه نعيشها جميعاً، والاعتراف بهذا الواقع هي أول خطوة

للتطور، والالتزام بالشرعية الدولية هو خطوة عاقلة، البناء التالي عليها هو الطريق الصحيح. مواجهة الواقع الدولي الجديد فرادى هو طريق النهاية لهذه الأمة، والتنسيق وبناء العلاقة بين أطراف «النادي» على أسس مصالح الشعوب ورغباتها وخلق حالة من الارتباط النفعي المتبادل هو الطريق لتحويل هذا «النادي» من نادي «المنصاعين» إلى ناد يشكل رقماً في المعادلة الدولية القادمة.

في ظل الظروف الضاغطة، اجتهدت ليبيا بقرارها الذي يدمرها تدميراً، ومع هذا الاجتهاد فإن السؤال يظل مطروحا على الذين ينتقدون ليبيا ماذا هم مقدمون من بدائل؟ والإجابة ليست بعسيرة.

رد الفعل الذي لم أذكره هو رد الفعل على مستوى قطاع من الناس في الشارع الذين ليسوا مسؤولين ولا إعلاميين، وهو رد فعل ساخط ناقم على الموقف الليبي الأخير، وهو أيضاً موقف مفهوم في ظل التركيبة النفسية العربية التي تعاني من الإحساس بالهزيمة وتبحث عن أي شخص أو طرف يمكن أن يواجه «الغول» ويقول له «عينك حمراء»، وكانوا يظنون أن ليبيا ما زالت تقول ذلك، ولكن أدركت ليبيا أن الغول أقوى من أن يُواجَه، وأن مصادقة الغول ذي العين الحمراء في هذه المرحلة أسلم وأكثر أمنا حتى لا تخرج لافتة النهاية من «حفرة».

* * * *

(٦)

تعليقا على ما سبق

عندما فهم الثور الأسود

وأنا أقص لابنتي ذات الأعوام الستة حكاية أو «حدوتة» قبل النوم، ذات ليلة من لياليا الأخيرة، وجدتني أتوقف أمام قصة أظن أننا جميعاً سمعناها محكية لنا من أهلنا، أو حكيناها نحن لأولادنا، وهي قصة الثيران الثلاثة مختلفي الألوان، الأسود والأبيض والأحمر، والتي حار معها الأسد أو الذئب ــ لا أدري، ولم يتمكن أبداً من القضاء عليهم مجتمعين، ولم يكن أمامه إلا ان يفرق بينهم مستغلا اختلاف الألوان لينفرد بهم ثوراً ثوراً، وبدأ بالأبيض وانتهى بالأسود الذي قال قولته المشهورة، وهو تحت أنياب الأسد أو الذئب ــ ليس مهماً ــ تلك المقولة التي أصبحت تراثاً حيوانياً أو إنسانياً ــ لا يهم أيضاً، طالما أنها صحيحة ــ عندما قال «قتلت يوم قتل الثور الأبيض» ولكنه كان إدراكاً متأخراً.

حكيت لكم الحكاية ولم أذكر لماذا توقفت أمامها في هذه الأيام بالذات، تسربت من بعض المسؤولين العرب خلال الفترة الأخيرة، سواء في أحاديثهم الخاصة أو من خلال بعض إداراتهم أن رسائل أبلغت لهم بأنهم سوف يكونون في مأمن إذا ما أبدوا القدر المناسب من التعاون مع التوجه أو التحرك، أو التصور، الأميركي في المرحلة القادمة، وتزامن هذا مع قدر من التباعد، أو عدم الرغبة في إيجاد مساحة من الحوار أو التنسيق بين الأطراف العربية المختلفة، إما بمنطق الشك، أو بمنطق البحث عن الحل المنفرد، أو العلاقة المتميزة مع الشريك الخارجي، وبدا ان هذا التنسيق الغائب مرده لدى

بعض الأطراف رغبة في النجاة، أو هكذا يعتقدون كما اعتقد الثور الأسود منذ البداية.

ليس المقصود هنا الحديث عن تنسيق للمواجهة بمفهومها التصادمي، ولكن ما أقصده هنا هو التنسيق بغرض التدارس والتفاهم للوصول إلى قواعد مشتركة، إلى تفاهم متبادل، إلى تصور مشترك لتحديد وتقسيم أدوار في مواجهة القادم والذي يبدو أنه قريب.

ليس كل ما يقدمه الأسد أو الذئب الأميركي كله شراً، وليس أيضاً كله قدراً محتوماً، والتعامل بمنطق الثور الأسود في هذه الحالة سوف ينتهي بنا إلى أن يتحول كل ما يقدمه الأسد أو الذئب الأميركي إلى شر حتى لو كانت به عناصر إيجابية، وأن نتحول نحن إلى كائنات يعبث بها أسياد الأوليمبي كيفما يشاؤون كما يحدث في الأساطير الإغريقية، فلا نملك من أقدارنا إلا البكاء علينا وعليها.

البحث عن الإيجابي ــ وهو موجود ــ من الحالة الصعبة التي نواجهها الآن، والقدرة على الاستفادة ــ أو على الأقل التجاوز بأقل قدر من الخسائر ــ من هذه الحالة لن يتأتى، إلا إذا أدركت كل الأطراف العربية أنها في قارب واحد، ولن ينجو كل طرف إذا ما قرر أن يقتطع منفرداً جزءاً من القارب ظناً منه أنه بذلك سوف يكون من الناجين، بل إن الحفاظ على القارب متماسكاً سوف يكون الوسيلة للفهم والاستفادة والتجاوز، ولنا في الثور الأسود عبرة.

* * * *

.. بديلا غير الحائط

في نقاش مع أصدقاء حول الوضع العربي طرحت سؤالاً افتراضياً: هل من الممكن تخيل حرب بين دولة عربية وأخرى؟ وكانت الإجابة حاسمة بنعم، فبين كل الأطراف العربية من الخلافات والاختلافات ماهو مرشح لأن يتطور ــ أو يطور ــ لأسباب مختلفة داخلية وخارجية ــ ليتحول إلى سبب للنزاع. وأعقبت سؤالي بسؤال آخر: «هل يمكن تصور حرب بين فرنسا وألمانيا مثلاً؟» وكانت الإجابة قاطعة بـ«لا».

توقفت متسائلاً حول مغزى الإجابتين، الدول العربية التي تمتلك من مقومات التقارب والتوحد، سواء على مستوى اللغة أو الثقافة تمتلك في ذات الوقت مقومات الاختلاف القادر على التطور إلى ما هو أبعد من اختلاف الرؤى (!)، في حين أن دولتين مثل ألمانيا وفرنسا اللتين مرتا بتجربة حرب واحتلال قاسية مازال شهودها على قيد الحياة، إضافة إلى الاختلافات الثقافية واللغوية، لا يمكن تخيل وقوع حرب بينهما، ولا أقصد هنا ألمانيا وفرنسا تحديداً، ولكن يمكن تطبيق المثال على أي دولتين أخريين مماثلتين.

السبب في ذلك ببساطة يعود إلى أن تلك الدول وصلت في علاقاتها إلى مرحلة لم تعد تمتلك فيها ترف تطوير خلافاتها إلى ما يضر شعوبها، ذلك أن المصالح بين هذه الدول تجاوزت منذ فترة مصالح النظم السياسية وتخطتها إلى ارتباط مصالح الشعوب المكونة لهذه الدول، لذلك فإن أي خلاف سياسي لا يمكن أن يتطور إلى شكل أو مستوى يمكن أن يسيء ويضر بمصالح شعوب هذه الدول.

بتطبيق هذا على الدول العربية، نجد أن إرادة النظم السياسية هي الأعلى والأكثر تأثيرا، وغني عن الذكر الإشارة إلى أنه ليس بالضرورة ــ بل على

المطلق في معظم الأحيان- أن لشعوب هذه الدول تأثيراً يذكر في تحديد إرادة نظمها السياسية. إضافة إلى ذلك، وهو العنصر الأهم، فإن ارتباط مصالح شعوب هذه الدول العربية هو ارتباط ضعيف شديد الوهن إن لم يكن غائباً بشكل تام.

الحديث عن الارتباط المصلحي بين الشعوب العربية ليس الغرض الرئيسي منه هو الحيلولة دون تطور النزاعات، ولكن أتصور أن طرح مفهوم ارتباط مصالح الشعوب العربية هو البديل الوحيد المطروح الآن لأي شعارات عجزنا عن تحقيقها تتعلق بمفاهيم الوحدة العربية. بل وتتجاوز ذلك إلى مستوى الأمن القومي العربي المشترك، فلا أظن أن هناك فرصة للحديث عن هذا الأمن «المشترك» لو لم تكن هناك مصالح «مشتركة».

اعتدنا لعشرات السنين أن نطرح تصورات منقوصة لمفاهيم الوحدة والتقارب، وكان الانتقاص الرئيسي فيها هو غياب مفهوم المصلحة، وظلت هذه الشعارات تراوح مكانها في أوساط النخبة السياسية، وتوظف من أجل مصالح قصيرة الأمد والنظر لهذه النخب، وعلى المستوى الشعبي ظلت تلك المفاهيم في حدود المشاعر العاطفية غير الناضجة، ولم تعمل النخب السياسية ـ بوعي أو بدون وعي ـ التي تمتلك إمكانيات الفعل على تطوير هذه الشعارات وتلك المشاعر وتترجمها إلى مصالح مشتركة، حتى وصلنا إلى ما نحن عليه الآن.

والآن، ونحن جميعاً لانجد خلف ظهورنا إلا حائطاً لا نعرف حدوده، ليس أمام تلك الإدارات السياسية العربية إلا أن تصلح من خطأ عشرات السنين ـ بقصد أو بدون قصد ـ وأن تعيد النظر في مفاهيم تلك الشعارات التي استغلت في غير ما تحوي من معان، وأن تبدأ ـ تلك النظم ـ الحركة نحو خلق حالة من ارتباط المصالح الشعبية العربية، والتي هي الضمان الوحيد لأن نجد خلفنا وأمامنا بديلاً غير الحائط.

الذكاء السياسي

بعد ظهر أحد الأيام عاد ابني الأكبر ــ ستة أعوام وقتها ــ ومعه رسالة من المدرسة تفيد بأن مظاهرة سوف يقوم بها تلاميذ المدرسة بعد عدة أيام يطالبون فيها بتخصيص شرطي مرور أمام باب المدرسة كل صباح، لأن أحد زملائهم كادت تدهسه سيارة. وحثت الرسالة الأهالي على المشاركة في المظاهرة دعماً لأولادهم.

في اليوم المخصص، وفي الثامنة صباحاً كان أطفال المدرسة في الحي الهادئ في لندن متجمعين يحملون لافتات يطالبون فيها بمطلبهم، ويرافقهم مدرسوهم وبعض الأهالي، وتحرسهم الشرطة في مسارهم المحدد سلفاً. انتهت المظاهرة، وبعد أيام كان هناك شرطي أمام مدخل المدرسة تنفيذاً لمطلب المتظاهرين من الأطفال.

تذكرت هذه المظاهرة التي شاركت فيها مع ابني وأنا أتابع ما يحدث في الشارع العربي من مظاهرات، ومن رد فعل حكومي على هذه الجموع التي تحركت بشكل عفوي، وبإحساس ضاغط وخانق بالألم والإحباط والغضب. وللمفارقة فرد الفعل هذا الذي اتسم بقدر ملحوظ ومرفوض من العصبية والعنف، وصل إلى حد القتل في بعض الدول لأبناء الوطن من المتظاهرين على يد أبناء الوطن من رجال الأمن وتوقف عند حد الاعتداء بالعصي في البعض الآخر، ووصل إلى حد الاعتقال والحبس في البعض الثالث.

التظاهر ثقافة وتربية، والتعامل مع الجموع الغاضبة عن حق ذكاء وسياسة. لذلك لا أجد أمامي إلا أن أدين الذين اعتدوا على حق المتظاهرين في أن يعبروا عن غضبهم حتى لو كان هذا التعبير متجاوزاً في

بعض الأحيان. هذا التجاوز من قبل بعض المتظاهرين والمتمثل في الاعتداء على بعض المنشآت العامة أو الأملاك الخاصة، هو أمر منتقد ومرفوض، ولكن يتحمل الجزء الأكبر من مسؤوليته تلك الأنظمة التي لم تعط لهؤلاء الفرصة طيلة عشرات الأعوام الماضية لأن يمارسوا هذا الحق بشكل منظم، بل ظل هذا الحق مجرَّماً ويصل إلى حد التخوين في بعض الأحيان ــ إن لم يكن معظمها ــ والآن عندما يخرج هؤلاء ووقودهم الغضب والإحساس بالمهانة تجد الأنظمة نفسها في ورطة، فموقف الشارع تتفهمه بعض الأنظمة، بل تتعاطف معه، فقد أصبحت في ذات الخندق نفسه لأول مرة ــ لكن في الوقت نفسه تعجز أجهزة هذه الأنظمة أو مستشاروها عن فهم هذا التغير. وبدلاً من أن تتعامل مع غضب الشارع المشروع بذكاء تتصرف معه بقدر لا يحسدون عليه من عدم الكياسة وبأبعد قدر ممكن عما يمكن أن يوصف بأنه ذكاء سياسي.

تقف مسألة القتل للمتظاهرين، واعتقالهم، وترهيبهم كعائق إضافي، وعامل يساعد ويعمق الهوة بين الجماهير وأنظمتها التي بات بعضها يشكل عبئاً نفسياً وسياسياً على هذه الجماهير، ولسان حال الشارع يقول ما نواجهه من إحباط وإهانة مما يحدث اليوم أكثر من كاف، و«مش ناقصين» سلوكيات بعض أجهزة الأنظمة التي تظن أنها تخدم أنظمتها بالمزيد من الإجراءات التي يعتقدون أنها تحمي، لكنها في الواقع لا تفعل إلا مزيداً من الفجوة بديلاً عن التوحد.

أردت أن أكتب عن الذكاء السياسي في تعامل الأنظمة مع الجماهير الغاضبة، فوجدتني أكتب عن الغباء في التعامل، لهذا قد يكون من الأفضل أن أغير عنوان المقال.

الكوزماتيك السياسي

تشهد جراحات التجميل في العالم هذه الأيام ثورة حقيقية، فقد أصبحنا الآن نشاهد جداتنا من الفنانات وسيدات المجتمع ــ وبعضا لا بأس به من رجاله ــ وهم في مظهر يشعرنا بالشيخوخة نحن من نمر بمرحلة أواسط العمر. ولكن يظل السؤال، هل تنجح عمليات «الشبشبة» ــ بمعنى إعادة الشباب ــ وهل يتجاوز نجاح هذه العمليات المظهر أم أنها تستطيع أن تتجاوز إلى ما هو أعمق من ذلك إلى الجوهر ذاته. بهذا التساؤل أنا أتجاوز الحديث عن عمليات التجميل البشرية وأدخل مباشرة إلى عمليات التجميل السياسية، وهو الأمر الذي تسعى إليه عديد من أنظمة العالم في هذه المرحلة، ومن بينها عدد لا بأس به من أنظمتنا المصونة. هل ما تسعى إليه هذه الأنظمة الآن من عمليات تجميل شكلية في المظهر الخارجي لهياكلها السياسية هو أمر كاف لتجنب القدر المحتوم، وهذا القدر المحتوم ليس بالضرورة أن يكون خارجياً أو أميركياً، ولكن الاحتمال الأكبر أنه قدر داخلي. هل هذا القدر السطحي الشكلي من التغيير سوف يمكن هذه الأنظمة من إطالة عمر الشباب أو استعادته؟

داعبتني هذه الفكرة بعد حوار دار بيني وبين أحد كبار المسؤولين العراقيين في حكومة سابقة، لا أملك الحق في ذكر اسمه لأني وعدته بألا أشير إليه بأي شكل. تحدث الرجل عن المحاولات المتكررة التي حاول تمريرها إلى أساطين الحكومة السابقة في العراق من أجل إحداث بعض من التغييرات السياسية، وأشار في ذلك إلى أن هذا هو بعض مما أشار به عليه بعض من المعارضين العراقيين في الخارج، مطالبين الحكومة العراقية السابقة باستخدام «الكوزماتيك» السياسي، أي القيام ببعض عمليات التجميل كتخفيف الضغط على الناس، وإتاحة الفرصة لبعض الأصوات المعارضة بالعودة،

وممارسة بعض الأنشطة السياسية التي تعطي الانطباع بالحرية السياسية في الوقت الذي لا تغير فيه جوهرياً من طبيعة النظام وسيطرته وسطوته. ولكن كما يبدو، وكما أكد لي السياسي العراقي أن النظام السابق لم يستسغ هذا المفهوم التجميلي، وفضل البقاء محافظاً غير مؤمن بتغيير المظهر بعمليات تجميل لا تتفق وقناعاته وقدراته على الاستمرار والسيطرة والمواجهة بدون أي عمليات تجميل. وهكذا سقط النظام بوجهه الحقيقي دون تجميل، وأظن أنه حتى لو قام بتلك العمليات التجميلية لكان ساقطا بالتأكيد وليس بالضرورة نتيجة عوامل خارجية أو حتى داخلية.

وأعود للتساؤل، هل في هذه المرحلة يمكن لعمليات التجميل السياسية، مهما امتلكت من تقنية حديثة وقدرة على إعطاء انطباعات كاذبة، أن تنقذ أنظمة شاخت سياسياً وفقدت بشرتها القدرة حتى على تحمل المزيد من عمليات الشد أو الحقن، أم أن الحل هو معالجة حقيقية للجسد المريض والبحث بجدية عن أساليب تعيد لجسد وعقل وروح المجتمع شبابه ونضارته!

ما شهده العالم خلال الأشهر الأخيرة، وما أدركته الشعوب من حقائق محيطة بها، وما استشعرته الأنظمة من مخاطر حقيقية للمرة الأولى، كل هذا يجعلنا جميعاً حكاماً ومحكومين في قارب واحد، والعواصف الآتية لن تميز بين ركاب القارب، لذلك ليس هناك من طريق إلا التوحد والبحث عن أسلوب جديد، وطرق مبتكرة وجادة لتحديث القارب المشترك وإعادة الشباب إليه ليتمكن من الإبحار بنا إلى الأمام، إلى المستقبل. أما الإصرار على استمرار الوضع الحالي مع إنجاز بعض عمليات التجميل الشكلية فلن يجدي، وثمنها أغلى مما نحتمل جميعاً.

لن تفلح عمليات التجميل في إصلاح ما أفسده الزمن، حتى لو سعد أجدادنا وجداتنا بوجوههم الشابة بينما لا يملكون القدرة على الركض بأجساد عليلة .

حكاية الأعمى والأطرش

بين فترة وأخرى يعود لي ابني بنكته يحكيها لي ضاحكاً، آخرها قصيرة سريعة تقول: «واحد أعمى قال لواحد أطرش: فيه حد بيراقبنا».

استحضرت هذه النكتة وأنا أحضر إحدى الندوات المملة، فابتسمت ثم عدت إلى ما يدور في الندوة عن أسباب تراجع المشاركة السياسية، فاسترجعت النكته مرة أخرى، ووجدت أنها تفسر إلى حد كبير شكل علاقة معظم أنظمتنا مع شعوبها ــ التي هي نحن ــ التي هي أقرب إلى تلك المحاولة من التواصل بين أعمى وأطرش، وهي محاولة لا تثير إلا الضحك في أفضل الأحوال، أو الأسى في حالة الإفاقة.

وتوضيحا لما أقصد، فإن أنظمتنا اختارت، أو فرض عليها، أو هذا هو حالها، حالة العمى، المتمثلة في عدم رؤية حقيقة الأشياء، وعدم رؤية شعوبها واحتياجاتها الحقيقية، سواء كانت هذه الاحتياجات اقتصادية أو سياسية أو اجتماعية، وخلقت مساحة أشبه بالربع الخالي بينها ــ أي الأنظمة ــ وبين شعوبها.

وفي المقابل فإن الشعوب من جانبها قد أصيبت بحالة من الطرش.. عدم القدرة على سماع صوت أنظمتها أو التواصل معها، وهذه الحالة من الطرش يمكن أيضاً تصنيفها إلى حالين، طرش اختياري، وآخر عضوي ومرضي، والأمر الأكيد أنه، حتى لو بدأت الشعوب هذه الحالة من الصمم الاختياري ــ أو «التطارش» ــ فإنه بالتأكيد يتحول فيما بعد إلى حالة مرضية عضوية جبرية، تؤدي بالضرورة إلى استحالة في التواصل.

حالة العمى التي تصيب الأنظمة لا تقف فقط عند تجاهل شعوبها، ولكنها تتجاوزها إلى عدم القدرة على تحديد المخاطر القادمة، حتى إذا تمكنت من تحديد هذه المخاطر، فإنها بالتأكيد لن تكون قادرة على توصيل احساسها بالخطر إلى شعوبها التي ترفض أن تسمع، ولكنها قادرة على رؤية أن أنظمتها لا ترى ولا تريد أن ترى، فكيف تثق فيمن لا يراها أو لا يريد أن يراها، حتى لو شاهدت الشفاه تتحرك متحدثة محذرة، فإن حكمها على من لا يرى بأنه لن يستشعر الخطر القادم، أو لن يتمكن من أن يواجهه وحده، سيبدو ما ذكرت من قبل، وكأنه حالة من السفسطة أو مسائل المنطق الفارغة من المضمون، وقد يكون هذا صحيحاً، لكنه للأسف أقرب ما يكون إلى حالنا الذي هو أيضاً يدور في دائرة من الشعور المسيطر بالعدمية..

جميعنا نمر بأزمة، أنظمة وشعوبا، حكاماً ومحكومين، والحديث طويلاً عن المشاركة دون السماح بممارستها بالفعل لن يفيد، ولن تفيد دعوات المواجهة المشتركة للخطر إلا إذا تخلت الحكومات والأنظمة عن حالة الاستهانة برغبات شعوبها، وعن رؤية الاحتياجات الحقيقية لها، وعلى الجانب الآخر لن يمكن تجاوز ذلك الخطر وعبور مرحلة الأزمة إلا إذا تخلت الشعوب عن حالة الغياب الاختياري، وتلك الحالة من الإضراب الصامت، وفعلت من مشاركتها وحضورها، وفرضت اللغة والأسلوب والموضوع الذي ينفي عنها تلك الحالة من الطرش الاختياري. لسنا في حاجة إلى مبادرات خارجية لعلاجنا من العمى أو الطرش، نحن نملك ــ أنظمة وشعوباً ــ امكانية العلاج، إذا امتلكنا الإرادة لذلك.

* * * *

سجن مختلف

سمحت إدارة سجن بارليني في جلاسجو بعد ثلاثة أيام من المنع لعبد الباسط المقرحي أن يطلع على عدد جريدة «الشرق الأوسط» الذي احتوى على لقائي به، وهو اللقاء الذي تم باعتباري صديقا للأسرة. حاولت لقاءه عقب ذلك، لكن نصحني بعض المحامين بتأجيل هذه الزيارة لأن ادارة السجن قد تكون متحفزة بسبب نشر اللقاء مع عبد الباسط ضد قواعد السجن.

أتاني صوت عبد الباسط عبر الهاتف يشكرني على زيارة أسرته، وما زال يشكو وسيظل يشكو من الظلم الواقع عليه ويستخدم دائما عبارته التي كررها معي مرات عدة، وبالتأكيد يفعل هذا مع كل من يتحدث إليه. عبارته تقول: «إن جوهر المشكلة عندما يكون الخصم هو الحكم».

ما زال عبد الباسط يأمل ويعمل من أجل الوصول إلى حل لوضعه الذي بات يواجهه، يعد حاليا للتقدم إلى لجنة مراجعة الأحكام البريطانية، يجتمع بشكل شبه يومي مع محاميه ومع موظفي القنصلية الليبية في جلاسجو، والتي عملها الرئيسي ــ إن لم يكن الوحيد ــ هو قضية عبد الباسط. ولمست أن وجود هؤلاء يشكل تخفيفا كبيرا على عبد الباسط.

قد يكون الحل قضائيا سواء بالتبرئة أو العفو هو الاحتمال الأبعد، إلا أن الظروف الآن تبدو أكثر تهيؤا لحل سياسي في إطار التطورات المهمة التي تشهدها ساحة العلاقات الليبية الأمريكية، والعلاقات الليبية الغربية بشكل عام. وهذا الحل يكمن في ما سبق أن طرحه نيلسون مانديلا مطلع هذا العام عندما زار عبد الباسط في سجنه وطالب بنقله إلى دولة إسلامية لقضاء ما

تبقى له من عقوبة، وهو الاقتراح الذي قوبل برفض كامل وقتها من الصحافة الاسكتلندية وأهالي الضحايا، ولكن هذه المرة عندما طرح هذا الموضوع مرة أخرى عقب التوصل إلى الاتفاق مع الولايات المتحدة وبريطانيا فإن استقباله لم يكن بالرفض المطلق، وإنما ساد قدر من الترقب لما ستسفر عنه الأيام.

وعبد الباسط قال لي عبر الهاتف ان مدير السجن بادر بالحديث إليه بعد نشر إمكانية نقله إلى سجن في بلد إسلامي لينصحه بألا يصدق كلام الصحافة لأنه جزء من الاتفاق الذي تم، وكان رد عبد الباسط له ــ كما ذكر لي ــ إنك لست صاحب القرار في بريطانيا.

الأكيد ان السجون العربية لن تكون بمستوى سجن بارليني، وكما قال العديد من الكتاب فإن عبد الباسط في بارليني يملك من الحقوق ما يحسده عليها مواطنون عرب في بلادهم لا مسجونون، ولكن عبد الباسط يرد على ذلك بقوله بأن كرامة الانسان هي الأهم هنا، يكفي ــ على حد قوله ــ أنه في اي بلد اسلامي أو عربي فإن جو العداء سوف ينتفي، وامكانية التفاهم مع الجو المحيط اعلى، اضافة إلى ان الأهل والأصدقاء سوف يكونون أقرب. كل هذه اضافات يراها ويفتقدها عبد الباسط الذي يقول: «ان تكون مسجونا خارج بلدك فهذه عقوبة إضافية».

ما زال عبد الباسط غارقا في تفاصيل قضيته ودراستها مع نفسه ومع محاميه، وما زالت عائلته قريبة منه وبعيدة في ذات الوقت، وما زال يبحث عن عدالة افتقدها مرات عدة ويدفع ثمنا لسياسة هي أكبر منه ومن عائلته، ويأمل في أن تكون ذات السياسة هي الطريق الذي يخرج منه من بارليني إلى أي بقعة ليس غريبا عنها.

القمم العربية[1] : نُظر

(١)

حتى لا يتحول العرب إلى جزء من الفولكلور اليهودي

لست أدري تماماً هل قصة الحاخام والخنزير هي من قصص الفولكلور اليهودي أم أنها من قصص ما قبل النوم التي يحكيها الآباء والأمهات الاسرائيليون لأطفالهم قبل النوم لهدف تربوي مستقبلي. بغض النظر عن المصدر، فإن هذه القصة باختصار تقول إن رجلاً يهودياً صالحاً ذهب إلى الحاخام يشكو إليه من قسوة الحياة، حيث يعيش في حجرة صغيرة هو وزوجته وأطفاله الخمسة أو السبعة وأمه وأبوه في ظروف لا تطاق وحجرة مزدحمة لا يدخلها الهواء، سمع له الحاخام باهتمام ثم قدم له الحل وهو أن يشتري خنزيراً ويضعه معه في الغرفة يشاركهم فيها. أبدى اليهودي دهشته من الحل متسائلا: خنزير؟، أكد له الحاخام ما قاله وشدد عليه ألا يعود إليه قبل اسبوع على مشاركة الخنزير لهم حجرتهم.

مر أسبوع عاد بعدها اليهودي الصالح إلى الحاخام وهو في حالة يرثى لها، سأله الحاخام عن أحواله فشكا له إن أحواله باتت أسوأ بعد مشاركتهم الخنزير برائحته وعفنه ومخلفاته داخل ذات الحجرة، فقال له الحاخام : أخرج الخنزير من الغرفة، وأبلغني غداً كيف أصبح حالك؟،

---

[1] قمة شرم الشيخ ٢٠٠٠ .

وبالفعل حضر اليهودي الصالح إلى الحاخام في اليوم التالي بشوشاً باسماً وبادره بالقول : الآن الأحوال أصبحت أفضل بكثير.

هذه هي السياسة الإسرائيلية باختصار، الضغط الشديد حتى تبدو العودة إلى الأوضاع الأقل من الطبيعية انتصاراً وانجازاً يشعر به الطرف المقهور.

وعلى نفس المستوى فإنه يمكن القول إن تحقيق السلام ليس مجرد عملية أخلاقية أو إنسانية، حتى لو بدا الهدف منها كذلك، ولكنها تعبير عن توازن بين قوى ومصالح متصارعة ينبغي أن تحقق التوازن بين قوى متواجهة ومصالح متعارضة، ولو لم يتحقق هذا التوازن فإن السلام «أو ما يتم التوصل إليه تحت هذا المسمى» يصبح علاقة بين قهر قوي وضعيف، ومع الأسف هذا هو الواقع الذي نراه بأعيننا كل يوم في ما اصطلح على اعتباره سلاماً بين الإسرائيليين والفلسطينيين، بمعايير القوة والمصالح لا ينتج عنه بأي حال قدر من التوازن بل خلل واضح يعبر عن نفسه في القبول الاضطراري بالضغط وما ينتج عنه بعد ذلك، تماماً كما حدث مع اليهودي والحاخام.

وتجربة نتائج شرم الشيخ الأخيرة قريبة ودليل على ذلك، فها هو مطمح الفلسطينيين العودة إلى أوضاع ما قبل الثامن والعشرين من سبتمبر (أيلول)، أي العودة إلى الأوضاع التي كانت اصلا سبباً في تفجر الأحداث، بعد ان مارس عليهم الاسرائيليون كل أنواع الضغط على الأرض وفي المفاوضات، فبات هدفهم العودة إلى الحال التي كانوا عليها قبل اندلاع الانتفاضة وبدء الضغط الإسرائيلي، ولم يحظوا في شرم الشيخ إلا بأقل مما سعوا إليه، واعتبر البعض أن هذا يشكل نجاحاً، وهو أمر يتناقض بالتأكيد مع الشارع العربي.

نستطيع فهم القبول بشرم الشيخ ثم نتائجها الهزيلة بمفهوم الواقعية المريرة، أو مرارة الأمر الواقع، رغم ذلك فإن السؤال المشروع بالتأكيد، هل لنا أن

نقبل دوماً بالواقع المرير حتى لو بدا مرفوضاً، أم أنه يحق لنا أحياناً أن نتمرد على هذا الواقع أن نعلن ذلك على الأقل، عسى ان نتمكن من تغييره.

أظن أن الخطأ الذي يمكن أن نقع فيه أن تتبنى مصر نتائج شرم الشيخ وكأنها تخصها وتدافع عنها، في حين أنها مجرد نتائج لمؤتمر عكست نتائجه موازين القوى بين أطراف الصراع، بذلت فيه مصر جهداً كبيراً وملحوظاً للوصول إلى الحد الأقصى المتاح من النتائج، ولكن تبقى الحقيقة انها ــ أي النتائج ــ ما هي إلا تعبير عن علاقات القوى على الأرض، وبالتالي فإن مصر عندما تقدم هذه النتائج للقمة العربية فإنما تضعها أمام القمة بين كل البدائل الأخرى المطروحة لاتخاذ الموقف الذي يأمل البسطاء في الشارع أن يأتي معبراً عنهم، وأن يكون في ذات الوقت قابلاً أيضاً للتطبيق المؤثر، ويصبح في هذا المقام أن نتذكر القاعدة السياسية ــ بل الحياتية ــ فإن شروط أي عقد لابد وأن تكون مضمونة للأطراف قبل البدء في تنفيذ العقد، فلا يقدم طرف من الأطراف ما لديه مقدماً ثم يعتبر أن من حقه أن يحصل على استجابة الطرف الآخر تطوعاً.

وهذا هو المنطق الذي ينبغي أن يسود شكل العلاقات العربية مع اسرائيل، وهو الأساس الذي يمكن أن يكون مقبولاً لقرارات القمة العربية، فلا نعطي بلا مقابل بل أن نجمد ونسحب ما أعطينا من قبل في علاقات بعضنا مع إسرائيل حتى يمكن لنا أن نمتلك من القوة على الأرض ما تنعكس على مائدة المفاوضات، وحتى لا نبقى دائماً في وضع اليهودي الصالح في علاقته بالحاخام، حتى لا نتحول إلى جزء من الفولكلور اليهودي.

* * * *

(٢)

الخطاب العربي [1]

من منطق التخوين إلى غواية الاستهانة

تصيب العرب هذه الأيام حالة غريبة، قد تكون أهم ملامحها الدهشة والعجب، فجأة، وفي وسط زخم شعبي بإحساس قوي عال، وإحساس مشترك بالخطر الذي يحيق بنا جميعاً كعرب، وتعاطف إيجابي ومسؤول مع انتفاضة الأقصى، وسط كل هذا وبشكل يثير الريبة، تتحول الدفة نسبياً وتبدأ حالة من حالات المواجهة العربية ــ العربية.

أطراف تتهم، وأخرى ترد، وتتوإلى الأفعال وردود الأفعال، وللأسف الشديد فقد كان للإعلام دور ملحوظ في هذه المسألة.

مواقف عدة خلال الأسابيع الماضية بدأت قبيل عقد القمة العربية الطارئة في القاهرة طرحت تساؤلات مهمة وعلامات تعجب حول أسلوب الخطاب العربي ــ العربي.

بدأت هذه المواقف في الأيام السابقة على قمة شرم الشيخ التي استضافتها مصر قبل القمة العربية، ثم مع إلقاء العقيد القذافي مفاجأته بكشف مسوّدة مشروع قرارات القمة قبل انعقادها، ثم ماخرجت به القمة من نتائج، وما تبع ذلك من بداية تراشق إعلامي، وفي كل هذه المراحل كان التساؤل حول أسلوب الخطاب السياسي والإعلامي العربي ــ العربي.

---

[1] قمة شرم الشيخ ٢٠٠٠ .

عانينا جزءاً من الستينيات والسبعينيات من مساوئ شابت أسلوب الخطاب العربي في تلك الفترة، جعلته يستند إلى منطق التخوين والاستهانة من قبل أطراف عربية بأطراف عربية أخرى. ما أشبه الليلة بالبارحة تساوت في ذلك معظم الأطراف في تلك الفترة، فإذا كان السادات قد وصف وقتها أحد الزعماء العرب بالمجنون، واتهم آخر ببيع القضية، فلم يقصر غالبية العرب في ذلك الوقت في اتهام السادات بالكثير أقله الخيانة، وكان الإعلام الرسمي أداة مهمة في كل هذه الهجمات.

هذه الأجواء الكئيبة كنا نظن أننا تخطيناها، ولكن في ما يبدو فإن بعضاً من رواسب الماضي بدأت تطل برأسها حتى كادت تتسبب في أزمات جديدة. فلم يكن مفهوماً استخدام مساوئ لغة خطاب السبعينات في الخلاف مع زعيم، أي زعيم عربي، لذا كان خارجاً عن السياق ذلك الهجوم الشخصي على القذافي في بعض الصحف المصرية لعدم مشاركته في القمة بأسلوب لم يختلف عن الأسلوب القديم، وكاد يتسبب ذلك في أزمة لولا حرص القيادتين المصرية والليبية على احتواء الأزمة قبل تفاقمها.

وعلى جانب آخر كان لتركيز بعض وسائل الإعلام العربية على مشهد حرق العلم المصري وتمزيق صور الرئيس حسني مبارك أثر سيئ. هذا الاتجاه إلى التركيز على المواقف المتطرفة وغير المتسقة مع الخط العام للموقف العربي من قبل بعض أجهزة الاعلام العربية كان له أثر سلبي لمسناه خلال الأيام الماضية على العلاقات المصرية ــ الفلسطينية، ذلك أن أطرافاً في بعض وسائل الاعلام المصرية تلقت ما حدث لتبدأ مرة أخرى نفس المعزوفة التي شابت أجواء السبعينيات، وتجاوز الانتقاد موقف بعض الفلسطينيين ــ الذي هو موقف سيىء بالفعل ــ لينسحب على الفلسطينيين جميعاً.

إذا ما تناولنا موقف الفلسطينيين المنتقدين للموقف المصري والذين قاموا بحرق العلم وتمزيق صور الرئيس المصري، فإن الأجدر بهم أن يتوجهوا بانتقاداتهم هذه في الأساس إلى قيادتهم وليس إلى مصر التي يمكن أن نقول بثقة عن موقفها خلال العقد الماضي كله من القضية الفلسطينية، أنها مثلت عنصراً مهماً في دعم الموقف الفلسطيني، بل والحيلولة دون رضوخ الطرف الفلسطيني في بعض المراحل للضغوط التي تمارس عليه، وهو موقف تعرضت مصر فيه طيلة الأعوام الماضية لانتقادات حادة من الولايات المتحدة الأميركية ، وأقربها ذلك الهجوم الذي تعرضت له مصر والرئيس مبارك شخصياً من الطرف الأميركي بعد فشل اجتماعات كامب ديفيد، والتي لولا الموقف المصري السعودي والمدعوم بموافقة عربية وإسلامية، الداعم لموقف عرفات التفاوضي والرافض لأي تنازلات في القدس، لولا هذا الموقف لكان الوضع الآن مختلفاً.

ما حدث في القمة العربية هو بالفعل أقل من طموحاتنا في الشارع العربي كله من محيطه إلى خليجه، والموقف العربي رسمياً كان صادماً لهذا التوجه الشعبي العام وهذا التوقع المشروع من قبل المظاهرات في شوارع العرب جميعها بكل طوائفهم، ولكن ــ وللأسف ــ فإن ماخرجت به القمة العربية هو الحد الأقصى المتاح وفقاً للعلاقة بين الإمكانيات العربية المتاحة والإرادة السياسية للأنظمة العربية، ولكن هذه القمة وضعت لبنة غاية في الأهمية لبناء العمل العربي المشترك الذي يمكن أن يغير في معادلة الإمكانيات والإرادة السياسية، وهو الآن الذي كنا نتوقع أن تبدأ الأطراف المختلفة في البناء عليه وليس استخدامه كمعول للهدم.

عندما أخطأت ــ كما تعتقد ــ بعض وسائل الإعلام العربية في التركيز على الموقف المتطرف من بعض الفلسطينيين تجاه مصر، ردت بعض وسائل الإعلام المصرية بهجوم ضار على كل ما هو فلسطيني ــ وهنا أخطأت كما

نعتقد أيضاً ــ وعادت لغة الفرقة ولهجة الانزواء، وهو ما يتناقض بشكل جوهري مع المصالح الاستراتيجية لمصر، بل ويتلاقى مع الأهداف الرئيسية لأية قوى معادية للدور القومي لمصر، والتي في مقدمتها عزل مصر عن تفاعلات النظام العربي.

وقد مرت العلاقات السياسية المصرية ــ العربية بمراحل مختلفة من التطور كانت مؤشرات الوحدة والعمل المشترك فيها تتذبذب بين اندماج وانحسار تدريجي. وقد صيغت هذه العلاقات في إطار حدود الدور الذي تلعبه مصر في الساحة العربية، وكذلك فعالية هذا الدور وتأثيره في القضايا المختلفة. وقد أتاحت بعض العوامل الجغرافية والثقافية لمصر أن يكون لها دور وثقل سياسي وإعلامي داخل المنطقة العربية. فموقع مصر الجغرافي بين كل من البحر الأبيض والبحر الأحمر، فضلاً عن تجانس الحضارة المصرية واندماجها مع الحضارة العربية، وما نتج عن ذلك من اندماج الثقافة المصرية مع الثقافة العربية، كان لهذين العاملين أثر واضح في تحديد الدور المصري العربي، والذي تأكد بوضوح من خلال التجربة القومية العربية التي برزت في فترة حكم عبد الناصر كحتمية جغرافية ثقافية أكثر من كونها أيدلوجية سياسية.

إذاً، فالنتيجة الطبيعية التي نخرج بها بعد هذا التراشق الإعلامي هو التأثير السلبي في ثوابت استراتيجية.

وعلى مستوى آخر، تتجاوز إحدى القنوات الفضائية العربية في أسلوبها في تناول الأحداث من خلال بعض برامجها، ويختفي الخط الفاصل بين دور المذيع المحاور وصاحب الموقف، وتدار الحوارات من قواعد سياسية ومواقف أيدلوجية، فتكون النتيجة بعداً عن الموضوعية وإساءة إلى رموز ونظم من دون الوضع في الاعتبار تأثير ذلك على مجمل الوضع العربي كله. وكذلك رد الفعل المصري على موقف هذه القناة، والذي بدا مفهوماً وفي حدوده عندما

خرج وزير الإعلام المصري صفوت الشريف ليعبر عن غضب مشروع، ولكن في ما بعد تجاوز آخرون هذه الحدود المفهومة، وبدا الأمر وكأن هناك حالة من حالات الحرب المعلنة ضد القناة، وهو أمر لن يستفيد منه إلا القناة نفسها بهذه الدعاية المجانية، ولكن الأثر السلبي لكل ما يحدث سوف يبقى حاضراً.

الإعلام بين المثير والمضر ما سبق هو نماذج لحالة القلق والتوتر السائدة الآن على الساحة، وهو أمر في حاجة إلى وقفة مع النفس من قبل القائمين والعاملين في وسائل الإعلام العربية. ينبغي وضع مفاهيم جديدة وواضحة لحدود المسؤولية الإعلامية، وحدود واضحة بين ما هو مثير إعلامياً ومضر قومياً. لا أطالب هنا بوضع قيود، ولكن المطلوب هو الالتزام بالثوابت والتضحية بالمكسب المهين إذا ما أثر على هذه الثوابت. ما أقصده هو عدم العمل على الدق على مناطق الاختلاف بهدف الوصول بها إلى مرحلة الاختلاف.

أذكر أن اختلافاً في الطرح والمفاهيم بدا من خلال كلمتي الرئيسين مبارك والأسد في القمة العربية، ولاحظت أن تركيز عدد من وسائل الإعلام العربية كان على محاولة البحث والتأكيد على وجود خلاف مصري ــ سوري والبناء على وجود هذا الخلاف، في حين أن ما حدث هو اختلاف صحي في رؤى، حتى لو كان هذا الاختلاف في نقاط جوهرية، فإن طرحه بشكل عام وعلني هو المطلوب، وليس المطلوب استخدام هذا الاختلاف كوقود لزرع الخلاف بين نظامين، وهنا يكمن الفارق الذي ذكرته سابقاً بين الالتزام بالثوابت والإغراء المهني. هذه القضية تحتاج بحق إلى وقفة وإعادة تقييم بشكل عملي وموضوعي، بشرط أن نتفق جميعاً قبل مناقشته أن نضع اتهامات العمالة والخيانة والتراجع والانبطاح وكل ما شابه من هذه الاتهامات جانباً قبل أن نبدأ الحوار.

(٣)

بمناسبة القمة العربية[1]

(يامه القمر على الباب)

لست أدري تماماً ما هي العلاقة بين معايشة لحظة أو مرحلة مهمة من التاريخ، وبين أغنية قديمة تتداعى من الذاكرة. يبدو للوهلة الأولى أن لا علاقة بينها وبين اللحظة المعيشة. وحتى أكون مختصراً ومباشراً من دون مقدمات معقدة، فإن هذه الحالة هي التي عايشتها خلال الأيام الماضية والتي شهدت تطورات عربية ــ ليس هنا مجال تقييم مدى أهميتها ــ تتوج اليوم بعقد القمة العربية ــ العاجلة أو الطارئة أو العادية تخير ماشئت ــ في شرم الشيخ. ظل مقطع صغير من أغنية الراحلة فايزة أحمد «يامه القمر على الباب» يتردد في ذهني، هذا المقطع يقول «ماعدش فيها كسوف، يامه اعملي معروف، قومي افتحي له الباب». في البداية لم أر ربطاً مباشراً بين هذا المقطع وبين المرحلة المهمة التي نعايشها، ولكن بقدر من التركيز بدأت أتلمس الروابط بين ذلك المقطع وتلك الحالة.

اليوم، تلتئم القمة التي شهدت جدلاً بدا غير معتاد، وإن كانت كل القمم، التي عايشتها على الأقل، شهدت مستوى مماثلاً من الجدل وإن اختلفت الأسباب. تعقد قمة العرب اليوم كآخر تجمع دولي يلتئم لمناقشة

---

[1] قمة شرم الشيخ ٢٠٠٣ .

الأزمة العراقية التي هي أزمة النظام العربي بالأساس. وتأتي القمة بعد جدل ــ مرة أخرى جدل ــ ثار قبل وبعد اجتماع وزراء الخارجية العرب، وبيانهم المثير «للجدل» أيضاً، حول مسألة الامتناع عن تقديم تسهيلات لشن حرب على العراق، ووافق وزراء الخارجية العرب ــ وكما يتردد فإن أكثر من نصفهم يقدم بالفعل مثل هذه التسهيلات وفقاً لاتفاقيات دولية أو ثنائية ــ ولا نعلم ماذا سيفعل القادة أمام هذا المأزق والحل عندي ــ وهو لا يخفى على من سيصيغ البيان أو صاغه بالفعل ــ الحل يكمن في لغتنا الجميلة التي سوف تتيح لكل طرف أن يفسر وفقاً لمواقفه ومصالحه. إذن لن تحسم مسألة الامتناع عن تقديم تسهيلات إلا حسماً لغوياً! فلا يملك أكثر من نصف القادة إلا الالتزام ــ أو الإلزام ــ بما هم مرتبطون به.

على الجانب الآخر، وفي إطار تداعيات الذاكرة، تقفز إلى ذهني، منذ بدأ الحديث عن القمة العربية، ما حدث في بغداد عام ١٩٧٧ ــ قمة بغداد الشهيرة ــ والتي أتت عقب زيارة السادات للقدس ــ وبغض النظر عن تقييم هذه الزيارة الآن ــ وهي القمة التي اتخذ فيها القادة العرب قرارهم بتجميد عضوية مصر في الجامعة العربية، ونقل مقرها إلى تونس. وأنا هنا لا أطالب بإجراء مشابه، ولكن فقط أذكر بالحالة التي بدت حاسمة وقادرة على مواجهة أي قيادة عربية يعتقد الآخرون أنها تجاوزت وأضرت بصالح الأمة أو بمصالح وسلامة الشعب، فما بالك إذا ما كان الاثنان ــ الشعب والأمة ــ إضافة إلى السلام العالمي كله، معرضين للخطر، أوليست هذه لحظة مناسبة ــ أو تاريخية وفقاً للمصطلحات المحفورة في تاريخنا السياسي ــ ليتخذ القادة موقفاً حاسماً

واضحاً يضغطون به من أجل الحيلولة دون الانزلاق إلى حرب يدفع الجميع ثمنها.

يصدر البيان الختامي عن القمة، فهل يمكن ولو لمرة أن يكون بياناً واضحاً يبين للشعوب ــ صاحبة الحق في المعرفة ــ مواقف قادتها الحقيقية من دون صياغات توفيقية أو «كسوف».

أعود لمقطع الأغنية التي قد يفسرها بعض الخبثاء بأنني أربط بينها وبين مواقف الداعين لعدم تقديم تسهيلات عسكرية وهم يفتحون «الباب» بالفعل خفية، وقد يصلح هذا التفسير، إلا أن هناك تفسيرات أخرى تصلح أيضاً، فالمواقف التوفيقية لم تعد كافية لإصلاح الوضع العربي، والتخفي وراء الصياغات اللغوية لم يعد حصناً كافياً، وإخفاء الحقيقة عن الشعوب ليس هو الحل، بالفعل «ماعدش فيها كسوف، يامه اعملي معروف، قومي افتحي له الباب».

* * * *

(٤)

الطيب والبلطجي والحريف[1]

كان المشهد متكرراً عصر كل يوم بعد نهاية اليوم الدراسي، يتجمع الصبية استعداداً للعب مباراة في كرة القدم، تقوم الحقائب المدرسية فيها مقام المرمى، ويحدد خط متعرج ــ وأحياناً خط وهمي ــ حدود الملعب. ما استوقفني دائماً منذ تلك الأيام، هو بروز عناصر ثلاثة رئيسية تتحكم في مسيرة ومصير المباراة، هذه العناصر هي صاحب الكرة، وأكثر الصبيان إتقاناً لمهارات اللعب ــ من كنا نطلق عليه «الحريف» ــ، والعنصر الثالث هو البلطجي. وسوف أفسر ما أقصد من خلال شرح دور كل منهم.

يتحكم الصبي صاحب الكرة منذ البداية، ويلتف حوله معظم الصبية في محاولة منهم لإقناعه بالبقاء للعب مباراة، هو يتمنع لأنه يعرف أنه وحده في هذه اللحظة، من يملك أن تكون هناك مباراة أو ينفض الجميع، وهم يعلمون ذلك أيضاً، وتبدأ مساومته بأن يعطى الحق في أن يختار هو أعضاء فريقه وسوف يكون هو بالضرورة «كابتن» هذا الفريق، وهنا يدخل العنصر الثاني «الحريف» الذي هو ثمن بقاء صاحبنا صاحب الكرة، وتتدخل بعض العناصر لإقناع «الحريف» باللعب مع صاحب الكرة حتى لو كان لا يتقن اللعب، فهذا هو ثمن إقامة المباراة، ويقبل «الحريف» على مضض مشترطاً أن يكون له الحق في تدعيم الفريق بمن يرى من عناصر.

---

[1] قمة تونس ٢٠٠٤ .

تبدأ المباراة ليفاجأ الجميع ــ كل مرة ــ بأن هناك من يدخل وسط الملعب مفسداً المباراة، معلناً ببرود وثقة وجلافة «فيها أو أخفيها»! أي إما أن أشارك في المباراة أو أخفي وأنهي هذه اللعبة، وهذا بالطبع هو العنصر الثالث البلطجي بين الصبية، الذي لا يتمتع إلا بقوة جسمانية قادر بها على أن يفسد المباراة من دون أن يملك أحد الصبية إيقافه، لذلك يتم البحث لحظتها بسرعة عن أضعف الصبية شخصية ويطلب منه الآخرون أن يترك مكانه للبلطجي ليشارك في اللعبة حتى لا يخفيها.

هذه صورة من الذاكرة عن أيام طفولة أظن كثيرين منا أدركها أو عاشها أو شاهدها تقع أمامه. بالنسبة لي تمر أمامي هذه الصورة مرات عدة عند متابعتي لأسلوب إدارة العرب لعلاقاتهم، سواء علاقاتهم داخل دولهم من خلال مؤسساتهم السياسية والاقتصادية، أو من خلال علاقاتهم البينية، أي العربية ــ العربية. ولعل حالة القمة العربية الأخيرة التي فشل العرب في عقدها مرة، ويحاولون الآن بشتى الطرق ألا يفشلوا في عقدها مرة أخرى، هذه الحالة تصلح لأن تكون سبب مقنعاً لي لاستحضار تلك الصورة القديمة المتكررة بين الصبية ــ فيما أظن حتى الآن ــ والمتكررة في حياتنا السياسية داخلياً وخارجياً ــ أيضاً حتى الآن.

أظن أنه منذ البداية لو أدرك صاحب الكرة أنه إذا ما امتنع وتحكم فإن اللعبة ستفسد، وبالتالي سوف يفقد هو أيضاً إمكانية المشاركة. ولو عرف الصبية أنهم لو وقفوا موقفاً واحداً لفرضوا شروطهم سواء على صاحب الكرة، أو على البلطجي الذي يحاول إفساد اللعبة.

كوميديا القمة العربية الفاشلة في الانعقاد أعادت بقوة تلك الصورة الصبيانية إلى الذهن. واستمرار الحالة حتى لحظات كتابة هذا المقال هي تأكيد على أن ما نراه في حياتنا اليومية هو انعكاس فيما يبدو لثقافة مجتمعاتنا، ويبدو أيضاً أن ثقافة صاحب الكرة، وثقافة «فيها أو أخفيها»، هي أيضاً ثقافة متحكمة في إدارتنا لعلاقاتنا. كان هذا مقبولاً عندما كنا صبية، ولكن هذا لم يعد مقبولاً الآن، خاصة أن اللعبة تجاوزت حدود لعبة كرة القدم داخل ملعب حدوده وهمية، وباتت الآن لعبة مصير شعوب، حدود ما سيقع عليه تتخطى حدود التخيل.

قصة قمة تونس التي لم تعقد، والتي من غير المعروف ما إذا كانت ستعقد أم لا، والتي من غير المعروف أيضاً ماذا كانت أصلاً ستكون قمة تونس أم قمة القاهرة، هذه القصة مع كل ما سبقها وصاحبها وما زال يصاحبها حتى الآن هي قصة من قصص العبث العربي الذي سوف يظل يدفع ثمنه أهل هذا الوطن الذين ظلوا حتى الآن في موقع المتفرجين على مباراة تدور داخل حدود وهمية متعرجة، مباراة فقدوا اهتمامهم بها منذ فترة.

* * * *

(٥)

غاب نهار آخر .. وأتت قمة أخرى..![1]

غاب نهار آخر، غربتنا زادت نهـــارا، واقتربـــت عودتنـــا نهـــارا .. هـــذا ما تغنت به فيروز لأعوام طويلة .

منذ فترة ليست بالقصيرة غابت هذه الأغنية عن أسماعنا ، وكأننـــا ســـئمنا الغربة والغياب ، وسقطت قناعتنا بامكانية العودة . أعلـــم أن هـــذه الأغنيـــة تتحدث بلسان أهلنا من الفلسطينيين الذين ما زالوا ينتظـــرون يـــوم العـــودة الذي بشرهم به قيادات العرب جميعا، وغنت له فيروز آملة في أن كـــل يـــوم غربة يزيد هو يوم يخصم من طريق العودة ، ولكن فيما يبدو أن حياتنـــا كلـــها كالديون ، تزداد يوما بعد يوم بفضل الفائدة على هذه الديون ، فـــلا تنتـــهي، وكذلك فالأمل ـــ ليس فقط في العودة للفلسطينيين ـــ يبتعد .

ليس حديثي اليوم عن عودة اللاجئين، ولكنه عن بعـــد الأمـــل في التطـــور والاصلاح عنا كنظام عربي يبدو أنه شـــاخ أو شـــيخ . اليـــوم تنعقـــد قمـــة أخرى، لتزيد قممنا في العدد قمة ، ويتأكد لنـــا أن غربتنـــا داخـــل نظامنـــا العربي تتزايد يوما بعد يوم، والأمل في أن ينصلح حال هذا النظام أيضا يبتعـــد ولا يقترب .

---

[1] قمة تونس ٢٠٠٤ .

أخيرا تلتئم القمة الأزمة ، التي لم يجد معها تعليقا رسام الكاريكاتير الفنان مصطفى حسين سوى أن يعبر عنه بسخرية مريرة على لسان عمرو موسى في رسم كاريكاتوري، أن القمة ستلتئم لأنهم أخيرا تمكنوا من إيجاد أماكن على الطائرات للقادة للمشاركين في القمة .

ضحك هو كالبكاء من حال أمة ونظام يترنح باختياره في ظل عالم يتحرك إلى الأمام ، بلا هوادة .

القارئ للتقرير المنسوب إلى مؤسسة بوز آلن هاميلتون عن الوضع الحالي للعمل العربي المشترك سوف يصاب بحالة حقيقية من الإحباط ، بعد أكثر من خمسين عاما ــ تقترب الآن من الستين ــ يتسم العمل العربي المشترك بغياب التنسيق وضعف العمل العربي المشترك وضعف العلاقة بين المجالس الوزارية العربية وضعف التواصل والتنسيق وعزلة أجهزة العمل العربي المشترك عن بعضها البعض وغياب الأدوار الواضحة وتضارب أدوار الأجهزة والمؤسسات وعدم التنفيذ لكثير من المعاهدات والاتفاقيات العربية، هذا قليل من كثير ذكره التقرير الذي أعدته مؤسسة غربية للحالة العربية ، وهي حالة إن دعت إلى شيء فلا تدعو إلا إلى حالة من الإحباط والألم لحلم لم يكتب له أبدا أن يتحقق ، حلم في أن يكون هناك نظام عربي متماسك ذو قوام قادر على العيش في هذا العالم الجديد .

تنعقد اليوم قمة أخرى لا نتوقع منها إلا أقل من المواقف السابقة ، قمة.. جاهد الحريصون عليها أن تنعقد للحفاظ على الحد الأدنى للعمل العربي المشترك، ولكن مع شديد الأسف فإن هذا الحد الأدنى لا يلبي أبدا

طموحات وتوقعات الناس في الشارع . قمة عانت من الإلغاء مرة ، والتهديد بالإلغاء مرات عدة ، قمة حتى لحظتها الأخيرة لا يمكن تأكيد انعقادها ، قمة تعاني من مستوي التمثيل فيها رغم محاولات مخلصين لها بالنجاح في دعمها ودفع آخرين للمشاركة، قمة لا تعاني فقط من مستوى التمثيل، بل من مستوى القرارات المتوقعة منها، وهو مستوى أقل ما يوصف بأنه سيكون مخيبا لآمال القطاع الأعرض من الناس في الشارع .

لست أدري الرابط بين أغنية فيروز، غاب نهار آخر، وبين حال النظام العربي، ولكن أظن أنه رابط نفسي داخلي ، فذات الإحساس بالحزن والألم يمر بي كلما تداعت إلى ذاكرتي غاب نهار آخر أو نظرت إلى حالنا العربي .

فالغربة تزداد نهارا بعد نهار .

* * * *

(٦)

العهد والوفاق والتضامن .. نُظُر![1]

الأستاذ أبو الوفا كان مدرسا للغة العربية ، قرأت لأول مرة كلمة نظر ــ بضم النون ــ علي يديه ، اعتاد أن يكتبها على كراساتنا عندما لا يكون راضيا تماما عما فيها ، فهمنا وقتها أن نظر ــ بضم النون مرة أخرى ــ تعني أن ما كتبنا لم يكن بالممتاز ولا بالجيد ، ولا بالسيء جدا ، وبالتالي هو منزلة بين منزلتين ، فهمنا أن نظر ــ بضم النون ــ تعني استياء من حال ما قرأ لم يرق إلى حالة الثورة أو الغضب .

في مرحلة تالية اكتسبت كلمة نظر ــ بضم النون حتى لا ننسى ــ معنى مختلفا ، وذلك عندما بدأت أقرأها على الأوراق الحكومية لدى موظفي الدولة ، وعندما كانت تكتب هذه الكلمة كانت تعني ببساطة أن الموضوع المعروض لم يحظ أيضا لا بالموافقة ولا بالرفض ، ولكنه أيضا حالة بين حالتين ، ولكن نتيجتها تعني أن الموضوع المطروح مصيره التجميد والحفظ ، وبالتالي النسيان ، وأن أقصي ما يحتمله أو يستحقه أن ينظر إليه نظرة باردة لا معنى فيها ولا قرار منها ، ويمر مرور الكرام أمام عين الموظف الكسول بطبعه، وغير القادر علي اتخاذ قرار بفرض أنه يملك هذه القدرة . وهكذا اكتسبت كلمة نظر ــ بضم النون وأرجو ألا تملوا من التذكير ــ معني جديدا لدي ،، قديما لدي التفكير البيروقراطي ،، وهو معني التجميد والحفظ والنسيان المهذب . وقد أفتح قوسا هنا وأدافع عن اتهام جهاز البيروقراطية بالغباء ، ففي ظني أن الجهاز البيروقراطي يتمتع بقدر عال من الذكاء

---

[1] قمة تونس ٢٠٠٤ .

والقدرة على نحت طرق تعبيرات جديدة قادرة على التكيف لإعاقة أية محاولة لتجاوز معوقات الجهاز البيروقراطي ، وهذه شهادة أردت تسجيلها .

عندما خرجت علينا صحف الإثنين الماضي صبيحة نهاية مؤتمر القمة العربية في تونس بأنباء مفادها أن الخلافات بين الدول العربية قد استمرت حتى اللحظة الأخيرة حول وثيقة العهد والوفاق ، وحفاظا على ماء الوجه أمام الشعوب العربية والعالم ــ أظن أن الترتيب مختل ــ فقد تم الاتفاق علي أن يوقع وزراء الخارجية على وثيقة العهد والوفاق بتوقيع نظر ــ بضم النون ــ أقصد أن يوقع الوزراء بالأحرف الأولي، ولست أدري لماذا ليس بالأسماء الكاملة؟ هذه دعابة ــ التفسير الذي قدم لعدم توقيع الزعماء على الوثيقة أن يعلن الزعماء رفض توقيعها قبل أن تمر عبر القنوات الشرعية في بلادهم وتوافق عليها الجهات المختصة فيها والبرلمانات ــ ان وجدت ــ وذلك اتباعا للأصول السياسية ــ هكذا ــ وبالتالي فإن توقيعها يتعارض والأصول السياسية.

قد يكون من المناسب هنا التذكير بأن وثيقة العهد سميت بأنها وثيقة عهد ووفاق وتضامن بين قادة الدول العربية ، ويجدد بموجبها القادة التزامهم بميثاق جامعة الدول العربية وتنفيذ القرارات المتخذة في إطارها ، والالتزام بتطوير العمل العربي المشترك في كافة المجالات وإصلاح آليات عمل الجامعة العربية . هذا هو المضمون العام للوثيقة التي لم يتمكن القادة من الاتفاق على التوقيع عليها ، لذا وقع عليها وزراء الخارجية بتعبير نظر.

قدرات الجهاز البيروقراطي هائلة على ابتكار وسائل جديدة دائما على العيش والاستمرار في العرقلة ، وقدرات العرب أيضا هائلة علي نحت الجديد من الوسائل التي لا تؤدي في النهاية إلا إلى استمرار التجميد والمصطلحات التي لا تعني سوى التجميد ، وأساليب الحركة التي نتيجتها في أحسن الظروف محلك سر إن لم يكن للخلف در.

(١)

وزراء خارجية الفسيفساء العربية[١]

في ذلك المبنى العتيق المواجه لنيل القاهرة الذي لا يخلو من فخامة تميز الطراز العربي في الديكورات الداخلية، ذلك المبنى المسمى منذ أنشئ بجامعة الدول العربية، داخله تنتشر لوحات فسيفسائية لتجميع هذه القطع من الفسيفساء المتعددة الألوان والأشكال والأحجام لتخرج في شكل لوحات تبهر النظر.

وكهذه الفسيفساء يبدو الموقف العربي ــ ليس فقط الحالي ولكنه كذلك منذ سنوات طويلة ــ وإن نجح الفنان القديم في تجميع هذه الفسيفساء في شكل لوحات جدارية، فإن قطع الفسيفساء العربية ما زال سر تجميعها وإخراجها في مظهر مقبول سراً مجهولاً، فشلت المحاولات جميعها حتى الآن في جعل هذه الفسيفساء تتجمع في شكل واحد صلب يعطي الإحساس بالثقة والاحترام.

اليوم يجتمع وزراء خارجية الفسيفساء العربي المبعثر والضعيف في محاولة لبحث صيغة أو موقف. يأتي الاجتماع متأخراً «بعض الشيء» كما يعتبره البعض، «متأخراً جداً..» كما يعتقد معظم العرب البسطاء في شوارع العرب الممتدة من الخليج إلى المحيط.

---

[١] قمة شرم الشيخ ٢٠٠٣ .

يأتي اجتماع اليوم للبحث عن موقف عربي متماسك وواضح، ويأتي الاجتماع والعالم كله يموج بمظاهرات الرفض للحرب دون مبرر أو الحرب من أجل البترول، يأتي اجتماع اليوم أيضاً وقد حسم الألمان والفرنسيون والصينيون والروس موقفهم واضحاً من رفض الحرب واتخذوا مواقف واضحة في مختلف الساحات والمجالات والمجالس من المجالس الخاصة وحتى مجلس الأمن.

ويبحث الرافضون للحرب عن موقف عربي داعم من الدول العربية ــ المتضرر الأول من أي حرب قادمة ــ ليدعم من موقف تلك الدول، ولكن حتى اليوم لم تخرج جملة عربية متفق عليها تعبر عن موقف عربي واضح متماسك رافض لهذه الحرب. وبينما يخرج دعاة السلام في العالم في مظاهرات راقية ومظاهر متحضرة لتنظيم حملات قوية ومؤثرة ضد الحرب، لم نتمكن نحن حتى الآن في مجتمعاتنا العربية من تنظيم مثل هذه المظاهرات على هذا المستوى، أو حملات تنضم إلى مثيلاتها في أنحاء العالم وتدعمها.

الدعوة المصرية لقمة عربية تأتي في وقت حرج، ولكنه متأخر، لم أتمكن أبداً من أن أفهم تلك التحضيرات الطويلة، والمساجلات والنقاشات حول جدوى قمة عربية دون إعداد كاف. لست أدري ما هو حجم الإعداد المطلوب أكثر من وجود خطر حرب تدق على الأبواب. اجتمع قادة العالم شرقه وغربه منذ بدايات الأزمة، واجتمعت التكتلات العالمية المختلفة عدة مرات، ولكن بعض العرب ــ بل معظمهم ــ لم يروا ضرورة ملحة لعقد مثل هذه القمة. ورغم ذلك فإن تأتي متأخرة أفضل من ألا تأتي أبداً.

اليوم تبدأ اجتماعات وزراء الخارجية العرب تمهيداً لقمة عربية تشهدها شرم الشيخ الأسبوع المقبل، وأملنا ــ وهو ما بقي لنا من حق ــ في أن ينجح هذا الاجتماع أو تلك القمة في حل لغز الفسيفساء العربية لتخرج لوحة ــ أو موقف ــ يحمل الحد الأدنى من التجانس والاحترام.

(٢)

حقاً إنها فسيفساء عربية!![1]

قدم أحد نواب البرلمان المصري سؤالاً أو استجواباً ــ لا أذكر ــ حول أسباب ازدياد حالة الاكتئاب عند الشعب المصري، واتهم فيه الحكومة بأنها سبب في هذا الاكتئاب. وأنا هنا أطور هذا الاستجواب إلى بعد أكثر من بعده المصري المحلي، عندما اقترح أن يمتد الاستجواب ليشمل الشعوب العربية جميعها، وأطوره إلى بعد مرضي آخر عندما أضيف إليه أعراضا أخرى غير الاكتئاب، مثل عدم الثقة بالقدرة على الفعل، اليأس من الحالة العربية، الإحساس بالدونية أمام شعوب ما زلنا نعتقد أننا أساس نهضتها. وأقترح ألا يطرح هذا الاستجواب على البرلمان المصري ولا على أي من البرلمانات العربية ــ إن وجدت ــ ولكن أن يضاف كبند رئيسي على اجتماعات وزراء الخارجية العرب، واجتماعات القمة القادمة، وأطالب بأن يذيل هذا الاستجواب بطلب تحديد المسؤول عن هذه الحالة، وبشكل أدق، حدود مسؤولية المجتمعين عن هذه الحالة.

في مقال سابق تحدثنا عن الفسيفساء العربية، وتمنينا ــ وبعض الأماني ما زالت مشروعة ــ أن يتمكن وزراء خارجية الدول العربية في اجتماعهم من أن ينجحوا في أن يجمعوا هذه القطع المتناثرة من الأحجار ــ أو الدول ــ المختلفة الألوان والأحجام والأشكال ــ والأهداف أيضاً ــ في لوحة تمتلك الحد الأدنى من التكامل والتجانس، وتؤكد على أن ما يسمى بالنظام العربي

---

[1] قمة شرم الشيخ ٢٠٠٣ .

يمتلك القدرة على الإعلان الواضح عن موقف محدد تجاه قضايا تمسه أكثر مما تمس غيره على الكرة الأرضية. كان الأمل في أن تخرج لوحة تعيد إلى المواطن العربي الحد الأدنى من الثقة في نظامه، وتساعده على الخروج من حالة اللا ثقة والاكتئاب، كان الأمل في أن يخرج ممثلو القادة بموقف جدير باحترام أبناء «النظام العربي» واحترام «النظام العالمي»، ولكن ما حدث ــ وتابعناه جميعاً ــ كان أشبه بمسرحية هزلية مكررة، كان يمكن لنا أن نضحك منها سابقاً، ولكنها في هذه المرحلة وهذه الأيام لا تدفع إلا إلى ضحك هو أشبه بالبكاء.

انتهت اجتماعات وزراء خارجية الفسيفساء العربية، وأثبتت بالفعل أن ما يطلق عليه «النظام العربي» هو حقاً نظام «فسيفسائي» أشبه بلعبة الـ **Puzzle**، وأن سره ما زال سراً مخبوءاً لم يتمكن إنس بعد من معرفته.

انتهت اجتماعات وزراء خارجية ما يسمى بـ«النظام العربي» بتلك الضجة التي تابعناها جميعاً الأحد الماضي وحتى اليوم، ويجتمع الوزراء ذاتهم مرة أخرى الخميس القادم قبيل اجتماع القمة الذي شهد جدلاً لا يدل إلا على أزمة مزمنة يعاني منها «النظام العربي»، ولا يؤكد إلا على استمرار حالة الاكتئاب العربية العامة.

أظن أن البرلمان المصري رفض مناقشة الاستجواب حول ازدياد ظاهرة الاكتئاب، وأعتقد أيضاً ان اجتماعات العرب القادمة سوف تحذو حذو البرلمان المصري، فلن تناقش ظاهرة الاكتئاب العربي، وفقدان الثقة والإحساس بالعجز، وغالب الظن أن المجتمعين أيضاً لن يجيبوا عن السؤال المهم حول: «إلى أي مدى أنتم مسؤولون عن هذه الحالة؟».

* * * *

(١)

المتهمون

لكل جريمة طرفان، ضحية ومتهم، وضحية الجريمة التي بدأت فصولها الأخيرة على أرض العراق منذ أيام معروفة، وهي الشعب العراقي الذي دفع الثمن طويلاً من قبل ويستمر في سداد دين لا يعرف من أين أتى.

أما المتهمون في هذه الجريمة فهم كثر، ويحتار المرء في أن يحددهم وفقاً لحجم تورطهم في الجرم، ليس سهلاً تحديد من هو المتهم الأول أو الأخير في قائمة الاتهام. ولكن ما سنحاول الإشارة إليه هو طرح أسماء من يعتقد أنهم متهمون، وأترك لكم مهمة ترتيب المتهمين.

عندما شاهدت الرئيس الأميركي جورج بوش ــ الذي بدأ العراقيون يحملونه أوصافاً عديدة ــ أثناء كلمته الأولى عقب بدء العمليات العسكرية ضد العراق، وكان يتحدث عن الأبرياء الذين سوف يحاول تجنب قتلهم أو إصابتهم، ركزت في عينيه وبدا لي كممثل سيئ يحاول ابتزاز عطف الجمهور، والجمهور يعلم وبوش يعلم أنه ليس محلاً لهذا التعاطف أو هذه الثقة. لم أستطع إلا أن أشعر بأن رئيس القوة العظمى في عالم اليوم، ما هو إلا زعيم لقوة متعجرفة.

حولت «الريموت» إلى التلفزيون العراقي، فشاهدت دليلاً آخر يشير بوضوح إلى المتهم الثاني، مظاهرات لرجال ونساء وأطفال يحملون في أيديهم صوراً للرئيس العراقي، يغنون ويهتفون «بالروح بالدم نفديك ياصدام»، بدوا لي كالطير المذبوح يرقص من الألم، وتداعت إلى ذهني القصص الكثيرة التي سمعتها من أصدقاء عراقيين عاديين عن الأهوال التي

عاشوها، ومازال أهلهم يعيشونها في بلدهم، وتداعت إلى ذهني أيضاً الروايات الكثيرة عن طبيعة نظام الحكم هناك، وعن الدماء الكثيرة التي تلون أياماً ــ بل أعواماً ــ من تاريخ العراق طوال الحقبة الماضية وما زالت.

ويقف في قائمة المتهمين النظام العربي، ذلك النظام الذي واجه منذ أعوام طويلة سؤالاً متكررا أمام كل أزمة «هل تلك هي نهاية النظام العربي؟» وتنتهي الأزمة، وتأتي أخرى ليطرح ذات السؤال. وأظن أن الوقت قد حان الآن لتغيير صيغة السؤال «هل هناك ما يمكن تسميته بالنظام العربي؟»، لقد وقف ما يسمى بـ«النظام العربي» موقفاً لا لون له ولا قوام، ولأنه ــ أي النظام ــ ابن الأنظمة العربية المشتتة الشاردة، المتنازعة المتصارعة، فقد أتى ابناً ــ أي النظام ــ يحمل جينات أهله، فبدا عاجزاً عن التعامل مع المشكلة العراقية التي بدأت قبل قصف الأيام الأخيرة بعقدين من الزمان تقريباً.

أما الأنظمة العربية ــ معظمها ــ فقد آثرت التعامل بمنطق المصلحة قصيرة النظر، أو النفاق السياسي مع النظام العراقي خلال الفترة الماضية، ورأينا نظماً تغمض عينيها عن أصل المشكلة وتؤثر التعامل، يحكمها في ذلك النفاق السياسي لشعوبها أو النظام العراقي، أو لمصلحة قصيرة النظر أو حسابات سياسية أو اقتصادية ثبت الآن أنها خاطئة.

ولا أملك أن أعفي قطاعاً عريضاً من المثقفين والسياسيين من قائمة الاتهام، أولئك المثقفون والسياسيون الذين غضوا الطرف عن ممارسات النظام العراقي والنظام العربي، وتناسوا كل ما يتشدقون به عن حقوق الإنسان والحرية والديمقراطية، وبديلاً عن مناصرة الحق وما يدعون أنهم يؤمنون به، ناصروا ونافقوا نظاماً وأنظمة أهدرت الشعب العراقي وفي الطريق شعوبهم.

القائمة طويلة، والقرائن عديدة، وأكثر منها الأدلة، والآن أتى دوركم لتحديد من هو المتهم.

* * * *

(٢)

محمد ع. محمد ن.

«بالروح بالدم نفديك يا عراق» كان هذا هو الشعار الذي رفعه ويرفعه الآلاف من العراقيين الآن في مظاهراتهم التي تخرج عفوية لأول مرة منذ عقود. ترك صدام حسين موقعه في الشعارات وتركه للعراق صاحب الحق الأول والوحيد في أن يفدى بالروح أو بالدم من قبل أبنائه، وليت قادة العالم الذين يحتلون مثل هذا الموقع في شعارات بلادهم أن يتخلوا هم طواعية عنه ــ أي الموقع في الشعار ــ قبل أن يجدوا أنفسهم خارجه ــ أي المقعد وليس الشعار.

تلك المظاهرات التلقائية هي أحد المظاهر الصحية القليلة التي بدأت تدب في أوصال العراق المحتل الآن من القوات الأميركية والبريطانية بالاشتراك مع شخصيات تحمل الجنسية العراقية ــ اضافة إلى جنسيات أخرى ــ عادت بصحبة تلك القوات ــ بعضهم يعود لأول مرة ــ طمعاً في منصب قيادي، أو أملاً في أداء دور يجزون عنه، أولئك من يسمون أنفسهم المعارضة العراقية في الخارج، وبعضهم اختار الخارج لأنه مطارد بجرائم تمس الشرف في الداخل، فاختار الخارج «كملاذ آمن»، ويعود اليوم إلى الداخل محمولاً على فوهات مدافع قوات التحالف.

لا أظن أن الآلاف الذين يخرجون الآن إلى شوارع العراق مطالبون بخروج قوات التحالف، آملين في الوحدة يقبلون أن يكون حكامهم الجدد هم

أولئك الآتين عبر البحار، هم بالتأكيد ــ أي العراقيون ــ لا يستحقون ذلك العقاب بعد طول معاناة مع نظام صدام ومن سبقه. حق أولئك الذين يتظاهرون في الشارع اليوم أن يحكموا أنفسهم بأنفسهم في إطار سياسي يرتضونه، وفي إطار وحدة وطنية يختاروها ولا تفرض عليهم. التعامل مع العراق بمنطق الغنيمة لن يؤدي إلا إلى مزيد من التمزق والتشرذم، وعودة أبطال المعارضة الورقية من الخارج لحكم الداخل لن يكون إلا بداية لمعاناة جديدة لا يستحقها أولئك الذين تحملوا صداما ، وقاوموا غزو التحالف قدر طاقتهم، واليوم يخرجون يطالبون بالحرية الحقيقية.

تمكن العراقيون نسبياً من تجاوز صدمة الانهيار المفاجئ على عكس العديد ممن هم خارج العراق، ومن أمثلتهم ذلك المواطن الذي سمى نفسه «محمد ع محمد ن» وأرسل رسالة إلى صحيفة «صوت الأمة» القاهرية ليعلن فيها أن «أصحاب الأقلام الرخيصة والجنرالات الاستراتيجيين كلهم سيدفنون رؤوسهم في الوحل خزياً عندما يلقنهم الزعيم المفدى العظيم صدام حسين دروساً أليمة في الفكر العسكري العبقري».

«محمد عين محمد نون» نموذج لمن لم يصدق بعد ما حدث، وهو الأمر الذي تجاوزه العراقيون، ولا نتمنى أن تصل بهم الأمور وتطوراتها إلى الحد الذي ينتشر فيه بين العراقيين العديد من النماذج مثل محمد عين محمد نون، والتي تترحم على أيام صدام حسين وتترقب عودته.

* * * *

(٣)

صدام حسين الرئيس..
صدام حسين الحشيش!

تمكنت قوات مكافحة المخدرات بوزارة الداخلية المصرية من ضبط تجار مخدرات يروجون لصنف جديد من الحشيش اسمه «صدام حسين»، ويعد هذا النوع أو المنتج أحدث أنواع الحشيش، ولاقى رواجاً بين المتعاطين، وبالتالي صار أغلاها سعراً. ما سبق هو خبر حقيقي وليس مفتعلاً، وضبط هؤلاء التجار مروجي حشيش صدام حسين تزامن بالصدفة مع يوم إلقاء القبض على صدام حسين، ولا أعتقد أنه كان هناك أي تنسيق بين عمليتي الضبط، ضبط تجار حشيش صدام وضبط صدام الرئيس، ولكنها مصادفة. وأيضاً لا أظن أن المصادفات كلها ليست ذات دلالة، ولكني أعتقد أن بعض المصادفات تحمل دلالات مهمة، وأيضاً يمكن لنا نحن أن نحملها دلالات نعتقد أنها مهمة.

في وقت الأزمات ــ لاحظت أنني أتحدث كثيراً عن وقت الأزمات ــ تسود حالة من الرغبة في الهروب المتطرف هذا الهروب يأخذ أشكالاً مختلفة، ابتداء من إدمان المخدرات إلى إدمان السياسة، وما بينهما تزداد نزعات التطرف والإرهاب والفساد والانحلال، بالتزايد في الإدمانين، يبتعد المجتمع جله عن الوسطية ويتشتت ما بين أطرافه المتناقضة. ضمن هذه الحالة المتطرفة تلعب السياسة والإعلام دوراً مهماً في ترويج أفكار وأشخاص يتقمصون أو يتلبسون حالة المهدي المنتظر والمخلص (بضم الميم وتشديد اللام)، ونزايد ــ

أو يزايد بعضنا ـــ في الإعلام على مسألة الجماهير العريضة اليائسة المشتتة في أطراف المجتمع المتطرفة، وتبدأ عملية التسويق أو التخدير، ويبتلع الناس الطعم، ويدخلون في دائرة الادمان، ويعتقدون أن تلك البضاعة ـــ أو الزعيم أو القائد ـــ هو الحل الحقيقي، تبدأ حالة الإسقاط من واقع كل شخص على المخلص أو المخدر المنتشر ناظراً إليه باعتباره القادر الذي تتجسد فيه إمكانية تحقيق أحلامه المجهضة وواقعه الصعب، أو على الأقل يعتقد أنه ـــ أي هذا المخلص ـــ هو التعويض عن حالة القهر واليأس والانهزام عندما يراه واقفاً ـــ أو هكذا يعتقد ـــ أمام الأعداء ـــ أي أعداء ـــ وعندما يسمع منه أو ينقل عنه أنه البوابة الشرقية أو الغربية أو من أي اتجاه ـــ للدفاع عن الأمة العربية التي تعيش أكثر أيامها امتهاناً.

صدام حسين ـــ الرئيس وليس الحشيش ـــ تم ترويجه تحت هذا الإطار، وتحول إلى «حشيش» أدمناه ، وساعده في ذلك آلته الإعلامية وواقعنا السياسي والإعلامي، والغريب أنه حتى بعد سقوط بغداد والعراق تحت الاحتلال الأميركي ـــ بسبب صدام في الأساس ـــ استمرت حالة الترويج له، وبالتالي استمرت حالة الإدمان، وساهم في ذلك قطاع لا بأس به من أجهزة الاعلام ومن المثقفين والسياسيين العرب، ولا أستبعد هنا ـــ عملاً بنظرية المؤامرة ـــ أن تكون أطراف غربية أو أميركية ضالعة في ذلك أو على الأقل سعيدة باستمرار ترويج الحشيش، صدام حسين هذه المرة ليس الرئيس القومي حارس البوابة الشرقية، ولكنه المقاوم المناضل المجاهد ضد الاحتلال، الذي يلهب المقاتلين بخطبه الحماسية عبر شرائط الكاسيت، وصدق مرة أخرى البسطاء المغلوبون على أمرهم المحبطون من واقعهم، المتألمون لامتهانهم على أرضهم من أعداء الداخل وأعداء الخارج، من محتل الداخل ومحتل الخارج، صدقوا مرة أخرى ليس اقتناعاً، ولكن رغبة في التصديق، أو هي حالة

استمرار للإدمان الذي دأبوا عليه طوال سنين، ظلوا مصدقين حتى اللحظة التي شاهدوا فيها رجلاً أشعث الشعر خارجاً من حفرة ـ كما قالوا ـ متعاوناً مسالماً قالوا عنه إنه صدام حسين، والغريب أنه حتى الآن ما زال الكثيرون يرفضون أن يصدقوا أنه هو صدام حسين، هم في الحقيقة أشبه بمن يرفض أن يتخلى عن المخدر الذي أدمنه عمراً طويلاً، لذلك استمرت حالة الرفض لتصديق ما يشاهدونه بأعينهم، وبدأ البحث الذي لن يتوقف تحت أي ظرف عن أسباب تفسر عدم مقاومة بطلهم أو «حشيشتهم»، بل حتى عدم استخدامه الرصاصة الأخيرة التي وعد أنه سوف يستخدمها ليحرم أعداءه لذة التشفي وسعادة لحظة الانتصار.

ولكنه فيما يبدو أبى إلا أن يذيق المدمنون عليه صدمة الإفاقة على الحقيقة المرة، إنه ليس إلا ديكتاتوراً أضاع بلده وتسبب في احتلاله وصدم للمرة العاشرة جماهير المدمنين على الوهم والخرافة وانتظار المخلص، والتي روجها ويروجها واقع سياسي محبط، وواقع اجتماعي «أقل تقدما» ـ حتى لا أقول متخلفاً ـ وقطاع من الإعلام أدمن ترويج مثل تلك الخرافات والمخدرات.

سقوط تجار حشيش صدام حسين في أيدي أجهزة الأمن المصرية سيتسبب فيما أظن في ارتفاع أسعاره، وسقوط صدام حسين الرئيس لا أظن أنه سوف يوقف استمرار تجارة الوهم والخرافة.

* * * *

نرفض خطاب بوش

ولنناقش مضمونه

أعلن من السطر الأول أنني ضد أي تدخل سافر من قبل أي قوى أجنبية لتغيير أو لفرض تغيير واقع داخل أي دولة، وأن التغيير هو حق لنا ــ ان استطعنا امتلاكه فعلاً ــ وليس حقاً لأي طرف خارجي.

بعد هذه المقدمة التي أصبحت لا بد منها في هذه الأيام التي تتطاير فيها الاتهامات مثل الألعاب النارية العشوائية من اليمين ومن اليسار، وأحياناً من أعلى ومن أسفل، اتهامات من كل القوى السياسية غير السياسية، بعد هذه المقدمة التي وددت أن أبرئ نفسي فيها بداية أقول، إن الضجة التي افتعلت حول خطاب بوش هي مقبولة شكلاً، لكن المضمون في حاجة إلى مراجعة.. أتفهم تماماً رفض تدخل الرئيس الأميركي في الشؤون الداخلية للمجتمعات العربية، حتى وإن كان ذلك وفقاً للحسابات الأميركية ضرورة أميركية، ولكن ما توقفت أمامه هو أن الهجوم انصب على بوش بسبب خطابه الذي دعا فيه الدول العربية إلى مزيد من الديمقراطية، ولم يتوقف أحد لمناقشة مضمون هذا الخطاب، والذي أظن أن معظمنا استمع ملخصاً له من احدى الفضائيات أو من أحد الأصدقاء في جلسات الإفطار والسحور الرمضانية، ولم يكلف معظمنا نفسه قراءة مضمون الخطاب. ويذكرني هذا الهجوم نفسه الذي انطلق

وقت أطلق وزير الخارجية الأميركي كولن باول المبادرة المعروفة باسمه، وهي المبادرة التي اكتشف معظمنا بعدما هدأت عاصفة الهجوم أنها تتضمن جزءاً من الحقيقة الأليمة التي يعيشها الكثير، ولا نبالغ إن اعترفنا أن باول لم ير كل الحقيقة التي نعيشها، والتي هي أكثر قسوة مما طرح في مبادرته الشهيرة.

كنت أتوقع أن يتوقف دعاة الديمقراطية وإعادة بناء المجتمع أمام مضمون الخطاب، ويبدأون البناء عليه، وليس الرفض المطلق لما فيه، أنا شخصياً لي تحفظ أساسي ــ كما سبق أن ذكرت ــ على حق الآخرين في التدخل في الشؤون الداخلية لنا حتى وأن اكتسبوا أو اختطفوا هم هذا الحق، وتحفظي على المضمون مبني على أن إدراك الرئيس الأميركي لحقيقة الأوضاع في المنطقة فيما يبدو هو إدراك ناقص وغير متكامل، وقياسه للتطور الديمقراطي في المجتمعات العربية هو قياس كوميدي ــ من وجهة نظري ــ يغيب عنه الكثير من الإدراك لحقيقة الأوضاع، وهو قياس لا يمكن إلا أن أنظر إليه بريبة حول المغزى من تأكيده على الإشادة بتقدم بعض الدول في مسيرة الديمقراطية وفقاً للمعايير الأميركية وتعثر البعض الآخر، ومطالبة البعض الثالث بالمزيد من الجهد.

ليست فقط صحيفة «الفايننشال تايمز» هي التي تؤكد أن العالم العربي يتشكك في دعوة بوش إلى الديمقراطية ولا يصدقها، بل أستطيع أنا وأنت وكل شخص آخر أن يشكك تماماً في هذه الدعوة الأميركية، ونستطيع أن نجد أسباباً وأهدافاً أميركية متعددة وراء هذه الدعوة، بل إن حدود وملامح هذه الدعوة هي أيضاً محل تشكك، فالأكيد أن أي شكل من أشكال الديمقراطية

التي يمكن أن تهدد المصالح أو السياسات الأميركية في المنطقة أو العالم سوف يقف أمامه الرئيس الأميركي شخصياً، إذ المطلوب أميركياً هو ديمقراطية وفقاً للمصالح الأميركية.

رغم كل ما سبق، فإنني ما زلت أعتقد أن الهجوم أو انتقاد خطاب بوش لا ينبغي أن يعمينا عن أن بعضاً مما طرح فيه صالح للبناء عليه من قبل دعاة الديمقراطية، والمشاركين في محاولة إصلاح مجتمعاتنا من داخلها لا من خارجها، وإلا فدعونا نتفق جميعاً على أن نهاجم خطاب بوش، وبوش شخصيا، ولكن لنناقش مضمونه.

* * * *